مُشَاهَدَاتٌ فِي مِصْرَ

مَطْلَعِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ

تأليف: روبرت إينسلي

لوحات: لويجي مايــر

ترجمه وقدّم له وعَلّق عليه

د. أحمــد سالـم سالـم

مُشَاهَدَاتٌ فِي مِصْرَ

مَطْلَع القَرْن التَّاسِع عَشَر

الطبعة الأولى 1

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

اسم الكتاب : مشاهدات في مصر مَطْلَع القَرْن التَّاسِع عَشَر

تأليف : روبرت إينسلي

ترجمه وقدَّم له وعَلَّق عليه : د. أحمد سالم سالم

لوحـــــات : لويجي ماير

موضوع الكتاب: رحلات – تاريخ

عدد الصفحات : ١٧٣ صفحة

عــدد الملازم : ١١ ملزمة

مقاس الكتــاب : ١٧ × ٢٤ سم

الترقيم الدولي : 978-605-69742-5-0



التوزيع والنشر

6/11 شارع وحيد أفندي - حي توفيق بيك - كوجوك

جكمجة - اسطنبول - تركيا - ت: 00905454886870

هاتف: 00201027013326 - 00201555566139

E-mail: info@arabhistorypublishing.com

Websit: www.arabhistorypublishing.com

مركز التاريخ العربي للنشر

Arab History Publishing

VIEWS IN EGYPT,

FROM THE

Original Drawings

IN THE POSSESSION OF

SIR ROBERT AINSLIE,

TAKEN DURING HIS

EMBASSY TO CONSTANTINOPLE

BY

LUIGI MAYER:

Engraved by and under the Direction of Thomas Milton:

WITH

HISTORICAL OBSERVATIONS,

AND

INCIDENTAL ILLUSTRATIONS

OF THE

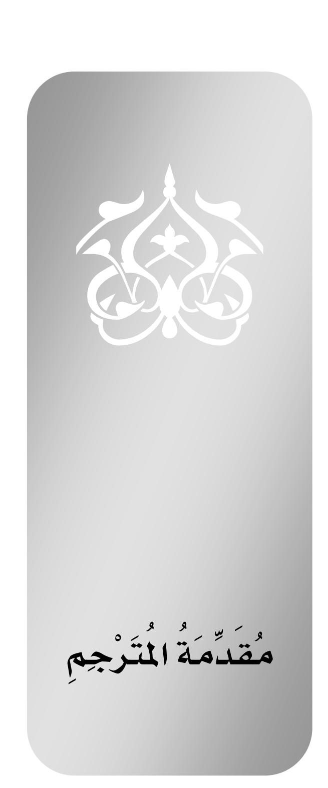
Manners and Customs of the Natives of that Country.

LONDON:

Printed by THOMAS BENSLEY, *Bolt-court, Fleet-street,*

For R. BOWYER, Historic Gallery, Pall-mall.

1801.



مُقَدِّمَةُ المُتَرْجِمِ

مُقَدِّمَة المترْجِم

كانت الحملة الفرنسية على الشرق (١٧٩٨ -١٨٠١م) بمثابة مرحلة انتقال كبيرة في دخول المشرق الإسلامي حيز الاهتمام الأوروبي، وعلامة فارقة في تطور العلاقات بين الشرق والغرب؛ لكنها في نفس الوقت كانت نتاج مرحلة معقدة من التقارب والصراع بين عالمين وحضارتين مختلفتين، ظلتا في سجال لفترة طويلة امتدت منذ القرون الوسطى حتى ذلك الحدث الفارق المتمثل في قيام قوة أوروبية بالغزو العسكري المباشر لإقليم من أقاليم الشرق الأدنى، للمرة الأولى في العصر الحديث. وعلى صعيد آخر لم تكن الحملة الفرنسية في وقتها حدثًا طارئًا مفاجئًا كما يبدو للبعض، وإنما جاءت في سياق طبيعي للتطورات والتقلبات الذي شهدها توازن القوى في القارة الأوروبية إبان القرن الثامن عشر من ناحية، ومن ناحية أخرى لاختلال ذلك التوازن بين الشرق الإسلامي -الذي كانت تهيمن عليه الدولة العثمانية منذ بدايات العصور الحديثة - وبين مختلف القوى الأوروبية، لصالح تلك الأخيرة، بعد النهضة الكبيرة التي شهدتها على كافة الأصعدة خلال قرون العصر الحديث؛ ما أحدث فجوة حضارية بينها وبين الشرق، وجعلها تحوذ زمام السَّبْق والصدارة.

وقد شهدت العلاقات بين المشرق الإسلامي، وبين قوى الغرب الأوروبي تطورات ملحوظة خلال القرن الثامن عشر؛ خاصة وأن أوروبا قد دخلت في هذا القرن ما أطلق عليه المفكرون "عصر التنوير"، فكان لأعلام ومفكري هذا العصر، من أمثال فولتير Voltaire (١٦٩٤ -١٧٧٤م) دورًا كبيرًا في محاولة التعرف على الإسلام والاتجاه إليه كمورد من موارد رؤيتهم الإصلاحية؛ فبدأت تتغير تلك الرؤية المشوهة التي صُدِّرت لأوروبا المسيحية إبان العصور الوسطى عن الإسلام وأهله، نتيجة السيطرة الدينية

للكنيسة آنذاك وترويجها أفكارًا مغلوطة داخل إطار دعائي عدائي للإسلام في ظل سيادة الجهل والتخلف جنبات المجتمع الأوروبي. هذا غير ما شهدته الفنون والآداب والعلوم من تقارب وتجاوب مع الحضارة الإسلامية وما خَلَّفَته، وهو ما أسهم بشكل ما في رسم صورة جديدة عن الشرق في نظر عامة الأوروبيين وخاصتهم، ودفع للتقارب أكثر على شتى الأصعدة.

مع بداية هذا القرن قام الفرنسي أنطوان جالان A.Galland (١٦٤٦ -١٧١٥م) بترجمة "ألف ليلة وليلة" إلى الفرنسية، نُشرت في اثني عشر مجلد بين عامي (١٧٠٤ -١٧١٧م) ما كان له تأثير كبير على تعرف المجتمع الأوروبي على صورة جديدة لشرق يرفل في حُلَّة ساحرة، تختلف كل الاختلاف عن الحياة الأوروبية العملية المعقدة؛ خاصة وأن الشرق الإسلامي قد حافظ حتى نهاية القرن الثامن عشر على طابعه التقليدي منذ العصور الوسطى، ما أكسبه عبقًا تاريخيًّا مميزًا يجذب كل باحث عن المغامرة واستكشاف الجديد في أرض هي منبع للأساطير والحضارات القديمة. وتزامن ذلك مع دخول الحياة الفنية الأوروبية صور ولوحات بعض الفنانين الأوروبيين الذين أقاموا فترات في استانبول وعملوا في القنصليات والسفارات الأوروبية أو في خدمة الباب العالي، كفنانين تسجيليين لتصوير الاحتفالات واللقاءات الرسمية، لكنهم سَجَّلوا أيضًا مظاهر الحياة والبيئة الشرقية من مختلف جوانبها، حتى أدق تفاصيل العمارة والأثاث والأزياء؛ من أمثال جان باتيست فانمور Jean Baptiste Vanmour (١٦٧١ - ١٧٣٧م) الذي كَلَّفه السفير الفرنسي باستانبول بإعداد مجموعة من اللوحات تصور أشهر الأزياء الشرقية في أنحاء الدولة العثمانية، ليضعها في كتاب صَدَرَت طبعته الأولى في باريس عام ١٧١٤م[1]، لقي صدًا واسعًا

(1) Jean Baptiste Vanmour, *Recueil de cent estampes representant differentes nations* du Levant, (Paris, 1714).

وتُرجم إلى خمس لغات أوروبية على الأقل؛ لتقترب الصورة الشرقية على هذا النحو من المجتمع الأوروبي أكثر فأكثر، ولتنتشر على إثر ذلك ما عُرف بالموضة التركية، والتعلق بكل ما هو شرقي في الأزياء ومظاهر الحياة.

تزامن مع ذلك تطور الدراسات التاريخية والأثرية وازدياد الإقبال على المخطوطات القديمة المكتوبة باللغات الشرقية، وعلى رأسها العربية والفارسية والتركية، ليتم ترجمتها وتحقيقها ونشرها في المطابع الأوروبية. وأدى تعاظم ارتباط المصالح السياسية الأوروبية بالشرق الإسلامي في ذلك الحين، إلى رعاية هذا التوجه بشكل رسمي ومؤسسي، فازدادت الرحلات والبعثات التي كان لبعضها أغراض علمية وسياحية وكشفية، وللبعض الآخر أغراض تَجَسُّسِية تهدف في الأساس لرصد بنية المجتمع الشرقي واستقصاء أخباره. كان أشهر هذه الرحلات وأكثرها تأثيرًا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، رحلة كل من: الفرنسي كلود إتيان سافاري Claude-Étienne Savary (١٧٥٠ -١٧٨٨م) وكتابه: "رسائل من مصر"[(١)]، والفرنسي قسطنطين فرنسوا فولني Constantin-François Volney (١٧٥٧ -١٨٢٠م)، وكتابه "رحلة إلى سورية ومصر"[(٢)].

وقد لاقا الكتابين اهتمامًا كبيرًا وتُرجما على الفور إلى الألمانية والإنجليزية، مع اعتبار أنهما كانا على طرفي نقيض؛ فبينما كان سافاري حالمًا جانحًا إلى الخيال، يصف ما تقع عليه عيناه في شاعرية ورومانسية تنبئ عن هدف رحلته الأساسي، كان فولني جامدًا محددًا حشد في كتابه الحقائق والأرقام والأسرار العسكرية بشكل أقرب إلى التقارير

---

(1) Claude-Étienne Savary, *Lettres sur l'Egypte*, (Paris, 1785-86).

(2) Constantin-François Volney, *Voyage en Syrie et en Égypte*, (Paris, 1787).

الجاسوسية، وبدا وكأنه يدعو فرنسا دعوة صريحة إلى إرسال حملة إلى الشرق، لاسيما مصر، وهو ما أشاع في الرأي العام الفرنسي التأييد لحملة بونابرت العسكرية التي انطلقت بالفعل إلى مصر عام ١٧٩٨م.

۞ ۞ ۞

في ظل هذه الأجواء جاء تأليف وإعداد هذا الكتاب، الذي يُعَدُّ أول كتاب أوروبي يصدر في القرن التاسع عشر، يتناول الإقليم المصري بالوصف عن طريق اللوحات التصويرية، التي كانت تمثل في ذلك الزمان الوسيلة الوحيد للتعرف على كل ما هو ناءٍ وغريب من الأماكن وما يَعْمُرها من البشر والحجر.

مؤلف هذا الكتاب هو السير روبرت إينسلي Sir Robert Ainslie (١٧٣٠ -١٨١٢م) المستشرق والسياسي والدبلوماسي الإنجليزي، الذي كان من جملة أولئك الغربيين الذين انجذبوا للشرق وتأثروا بحضارته، ساعده في ذلك ظروف عمله التي اقتضت إقامته في المشرق نحو عقدين من الزمان، لم يعمل فيها فقط كسفير بريطاني ممثل لبلاده في العاصمة العثمانية استانبول، حاضرة المشرق بأكمله آنذاك، وإنما تَبَحَّر في دراسة تاريخه وحضارته وآثاره، وسعى لتوثيق ما شاهده أو خَبِره في أعمال تكون بمثابة سفير آخر ينقل صورة الشرق إلى مجتمعه الغربي، وخاصة الإنجليزي؛ فكانت بالفعل علامة بارزة قبل ظهور الكتاب التوثيقي للحملة "وصف مصر"، الذي بدأت أول أجزائه في الصدور عام ١٨٠٩م.

قضى روبرت إينسلي، حياته المبكرة في بوردو Bordeaux الفرنسية، حيث كان والده جورج إينسلي يعمل تاجرًا؛ مع ذلك لا يُعرف شيء عن ظروف تعليمه وعمله المبكر، ويُعتقد أنه قد عمل في المراقبة والتجسس لفترة من حياته، إذ أنه قام باعتراض مراسلات من دوك أجيليون Duc

d'Aiguillon إلى البلاط الأسباني خلال أزمة جزر فوكلاند Falklands التي وقعت بين إنجلترا وأسبانيا بين عامي ١٧٧٠ -١٧٧١م.

وفي ٢٠ سبتمبر ١٧٧٥م تم تعيينه سفيرًا بريطانيًّا لدى الباب العالي العثماني، خلفًا لجون موراي John Murray؛ فقام بمغادرة إنجلترا في مايو ١٧٧٦م، ليصل إلى استانبول في أكتوبر، حيث ظل في منصبه حتى عام ١٧٩٤م. وكان إينسلي يهدف أساسًا من خلال منصبه الجديد إلى تعزيز المصالح التجارية البريطانية ممثلة بشركة الليفانت Levant Company فضلاً عن الحفاظ على السلام في المنطقة. ففي الوقت الذي هيمنت فيه فرنسا على تجارة الشرق، كانت العلاقات بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية قد تفاقمت إبان الحرب الروسية التركية (١٧٦٨–١٧٧٤م) خاصة عندما قَدَّمت بريطانيا الدعم للأسطول الروسي؛ ومع ذلك كان السلطان العثماني الجديد عبد الحميد الأول، الذي تولى عام ١٧٧٤م، حريصًا على إقامة علاقات سياسية وتجارية أكثر قربًا مع بريطانيا لموازنة مصالحه مع روسيا، وهو ما حدث بالفعل في وجود إينسلي.

يبدو أن إينسلي قد استمتع بحياته الجديدة في استانبول، وعلى النقيض من بعض سلفه من السفراء، تَكَيَّف بشكل كبير مع المجتمع الإسلامي والحياة التركية. فروي أنه أصبح مرتبطًا بقوة بالنمط الإسلام التركي في أسلوب حياته، سواء في معاملته مع الناس أو في منزله، وهو ما أسعد أهل البلد كثيرًا، وأضفى عليه شعبية لم يحذها أي سفير مسيحي. وفضلاً عن ذلك شغف بالعاديات والآثار الشرقية، خاصة العملات، فجمع عددًا من الآثار العثمانية والبيزنطية، ومجموعة كبيرة من العملات القديمة من شمال أفريقيا وأوروبا الشرقية والشرق الأدنى، حتى أنه صار عالِمًا في النُّمِّيَّات. وفي إطار هذا الشغف قام بتكليف الفنان الألماني لويجي ماير Luigi

Mayer (١٧٥٥ -١٨٠٣م)، بإنجاز لوحات يصور فيها مشاهد من بعض الأقاليم العثمانية ليُلحقها بكتاباته وملاحظاته التي كان بصدد إعدادها.

أما لويجي ماير المذكور فيعد من فناني القرن الثامن عشر، المنتمين لحقبة ما قبل الاستشراق، قبل أن يتحول التصوير الاستشراقي إلى نمط محدد في القرن التاسع عشر. وتُعَد رسومات ماير هي الأكثر دقة في تصوير الشرق الأدنى قبل ظهور الإنجليزي ديفيد روبرتس David Roberts، وأعماله في أربعينيات القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من شهرة أعمال ماير، إلا أنه لا يُعرف الكثير عن حياته؛ فقد وُلد في ألمانيا، وعاش لعدة سنوات في روما حيث تتلمذ على يد جيوفاني باتيستا بيرانيزي Giovanni Battista Piranesi (١٧٢٠ -١٧٧٨م) أحد أفضل فناني عصره، ثم عمل رسامًا رسميًّا لروبرت إينسلي أثناء عمله كسفير لدى الباب العالي، منذ عام ١٧٧٦م.

أنجز ماير رسوماته الاستشراقية نحو عام ١٧٩٤م، وطُبعت مختارات منها لأول مرة في لندن عام ١٨٠١م في كتاب: "مشاهدات في تركيا الأوروبية والآسيوية تتضمن الرُّوملي وبلغاريا ووالاشيا وسورية وفلسطين"[(١)]؛ ثم جُمعت رسومات ماير مع ما كتبه إينسلي في ثلاثة مجلدات، كان أولها هو ما بين أيدينا: "مشاهدات في مصر" (١٨٠١)[(٢)]؛ ثم "مشاهدات في الإمبراطورية العثمانية، خصوصًا في قرمانيا، وهي جزء من آسيا الصغرى لم يُستكشف بعد؛ مع بعض المقتطفات النادرة من جزيرتي رودس وقبرص،

---

(1) Robert Ainslie, *Views in Turkey in Europe and Asia*, Comprising Romelia, Bulgaria, Walachia, Syria and Palestine, (London, 1801).

(2) Robert Ainslie, *Views in Egypt*, (London, 1801).

والمدن المشهورة كورنث وقرطاج وطرابلس" (١٨٠٣م)[١] ؛ والأخير : " مشاهدات في فلسطين " (١٨٠٤م)[٢]، نُشرت تباعًا في لندن. وفي عام ١٨٠٤م، تم دمج المجلدات الثلاثة في إصدار واحد، يحمل اسم: "مشاهدات في مصر وفلسطين وأجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية"[٣]. وأخيرًا صدرت طبعة عام ١٨١٠م، تحمل اسم: "مشاهدات في الأقاليم العثمانية في أوروبا وآسيا وبعض جزر البحر المتوسط"[٤]. وجدير بالذكر أنه لم يُترجم أي منها إلى اللغة العربية.

۞ ۞ ۞

اشتهر من بين هذه الأعمال ذلك الذي تحدث عن مصر بشكل خاص، وصارت لوحاته الأكثر انتشارًا وتأثيرًا؛ إذ كانت حملة نابليون المعاصرة على مصر هي أحد أكبر وسائل الدعايا والترويج للكتاب، لما أثارته حينها من خيال لدى الرأي العام البريطاني واستحوذت على اهتمامه؛ ليصير هذا الكتاب الأكثر مبيعًا في بريطانيا عام ١٨٠١م، وليعاد طبعه تلبية للطلب المتزايد. وقد جاءت الطبعة الأولى -التي أُخذت عنها هذه الترجمة -في حوالي مائة صفحة تتضمن سردًا عن تاريخ مصر وجغرافيتها وعمارتها

---

(1) Robert Ainslie, *Views in the Ottoman Empire*, chiefly in Caramania, a part of Asia Minor hitherto unexplored; with some curious selections from the islands of Rhodes and Cyprus, and the celebrated cities of Corinth, Carthage, and Tripoli, (London, 1803).

(2) Robert Ainslie, *Views in Palestine*, (London, 1804).

(3) Robert Ainslie, *Views in Egypt*, Palestine and other parts of the Ottoman Empire, (London, 1804).

(4) Robert Ainslie, *Views in the Ottoman dominations in Europe and Asia* and some of the Mediterranean islands, (London, 1810).

وآثارها، وشعبها وعاداته وملبسه؛ فضلاً عن بضع وأربعين لوحة مطبوعة بتقنية الحفر على النحاس وملونة بالألوان المائية، نُفِّذت على يد فنان الطباعة، توماس ميلتون Thomas Milton (١٧٤٣ -١٨٢٧م) تُعَد لوحات توثيقية من الطراز الأول، حاولت رصد مشاهد متنوعة من الحياة المصرية، ما بين عمارة، سواء دينية أو مدنية أو آثار قديمة وأطلال، ومشاهد عامة من المدن أو القرى، وأخرى ترصد سمات أهل البلد وحياتهم اليومية وأزيائهم الشائعة.

كان لبعض هذه اللوحات قيمة خاصة لما تفردت به من تصوير أبنية طرأ عليها تغير أو أصابها الاندثار لاحقًا، أو منطقة شهدت تطورًا كبيرًا عبر الزمان. فعلى سبيل المثال صورت لنا لوحة رقم (١١)، أجزاء تطل على الميناء الشرقي أو القديم من مدينة الإسكندرية، وهي الآن جزءً من ميدان محطة الرمل، قد شهدت تغيرًا جذريًّا عبر العقود التالية؛ فقد اندثرت تقريبًا كل أجزاء هذه الصورة حاليًا، سواء أطلال ذلك البرج المتهدم، وهو جزء من الأسوار الشمالية للمدينة، أو المسلتين القديمتين اللتين تم نقلهما إلى أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ وكذلك رقم (١٩) التي تصور نفس المكان تقريبًا من زاوية أخرى. وفي اللوحتين (١٥) و(١٦)، نرى جامع العطارين القديم بمدينة الإسكندرية الذي اندثر الآن بالكامل ليحل محله جامع جديد تم بناؤه ١٣١٩هـ/١٩٠١م، في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني، يقع الآن عند تقاطع شارع فؤاد الأول مع شارع العطارين. وفي اللوحة (٢٦) نرى ما كانت عليه منطقة الأزبكية بمدينة القاهرة، قبل التطور الكبير الذي شهدته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي (٣٠) نرى أجزاء من قاعة يوسف بقلعة القاهرة، والتي زالت لاحقًا وحل محلها جامع محمد علي باشا الذي لا يزال قائمًا. وفي (٣٤) قصر مراد بك المملوكي الذي لم يعد له وجود. وفي (٤٦) نرى ما كان عليه شكل الميناء

الشرقي للإسكندرية واللسان الذي يمتد شرقه، والمباني المطلة عليه، فضلاً عن قلعة قايتباي. وفي (٤٧) تلك القنطرة المندثرة على خليج الإسكندرية قبالة الأسوار الجنوبية، والتي كان يُطلق عليها قنطرة سليمان.

وأخيرًا أرجو أن أكون قد وُفقت من خلال هذه الترجمة في إحياء عمل قديم، طواه النسيان ولحقه الإهمال لتقادم العهد عليه رغم أهميته، وأن أكون قد سلطت الضوء على حقبة مهمة تتضمن أعمالاً أخرى توثيقية، هي بمثابة مصادر أصلية، على نفس القدر من الأهمية، يمكن الرجوع إليها للتعرف أكثر على عالمنا الإسلامي ومنطقتنا في هذه الحقبة الفيصلية من تاريخنا، ومن ناحية أخرى نرى كيف كانت تَنظر إلينا الأعين الغربية حينذاك. والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه وخير خلقه محمد وجميع أنبيائه ومرسليه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم آمين.

أحمد سالم سالم

غَفَرَ اللهُ لَهُ

الإسكندرية في ٢٧ جمادى الأولى، ١٤٤٠هـ

الموافق ٢ فبراير، ٢٠١٩م

مِصْـــــر

وِفقًا لما نُلِمُّ به من الأزمنة الغابرة إلى وقتنا الحاضر، لم يكن لبلد أن يثير هذا القدر من الاهتمام كما فعلت مصر؛ ذلك أنها كبلد لديها معطياتها الخاصة التي تجذب اهتمام الناس. فقبل أن توجد روما بوقت طويل، وحين كان اليونان مجرد همج، كان المصريون أناس متحضرين أعدادهم غفيرة، لهم باع في العِلْم؛ استمد منهم الإغريق أساسياته الأولية. وإليهم يمكن أن تُرَد كل معارف القدماء إلى مهدها. ومؤخرًا قد تم اكتشاف تشابه كبير بين معارف الهندوس والمصريين؛ وبالتالي فقد تم الاستدلال على أن المصريين هم مَن عَلَّم الهندوس. غير أن المشكلة التي لا نملك رغبة ولا معطيات لحلها، هي من كان منهم المُعَلِّم ومن كان المُريد؛ لكن قد يكون هناك أمل للإجابة من واقع أبحاث مواطنينا المؤهلين في حقل لم يتم خوض غماره بعد بشكل كاف، رغم وجود احتمالات مؤكدة تجعلنا نميل لصالح آسيا. مع ذلك، إذا كان المصريون هم من عَلَّم الشعب الآسيوي، أو جلبوا معهم أساسيات المعرفة من آسيا عندما هاجروا إلى إقليم طيبة Thebaid قبل أن يتمكنوا من احتلال أسفل الوادي الخصيب، وهو ما يبدو أكثر احتمالاً؛ فما من شك أنهم السبب المباشر في التنوير المعرفي لليونان، ومن ثم تنوير العالم الغربي بأسره. نريد فقط إلقاء نظرة على مصر نفسها وإعطاء نبذة بسيطة عن هذا البلد، قبل أن نشرع في تناول المواضيع المعينة التي عَمَدَت الرسومات إلى توضيحها.

المساحة التي يشغلها هذا البلد تمتد امتدادًا كبيرًا. فعلى مدى طوله من الشمال إلى الجنوب البالغ حوالي خمسمائة وخمسين ميلاً، يكون الجزء الأكبر منه ضيقًا للغاية، محصورًا بامتداد جبلي من الجانبين يقع بينهما مجرى النيل؛ وقاعدة الدلتا، أو ذلك الجزء المتاخم للبحر المتوسط، وهو الأوسع، لا يتجاوز مائة وثلاثين ميلاً. ومع ذلك، فإن الخصوبة الكبيرة

للأرض في ذلك الجزء منها على الأقل، والتي اعتبرها القدماء والمحدثون عمومًا هبة النيل، جعلها تذخر بعدد كبير من السكان. وفي الواقع، إن الحسابات التي نُقلت إلينا عن عدد مدنها لا تصدق؛ فتبعًا لما قاله هيرودوت Herodotus، كانت تحوي في عهد أحمس Amasis عشرين ألفًا. ومع ذلك، من المحتمل أن هيرودوت لم يستخدم المصطلح المناسب لدى حديثه هذا، وأن فكرة الامتداد الذي نربطه بمدننا في الزمن الراهن تزيد من سوء فهمنا؛ بينما في نفس الوقت لا ترقى إلى الشك نتيجة للصروح المعمارية الهائلة والأعمال الفنية الضخمة التي تتناثر على سهولها في الوقت الحاضر، أو من صلابتها التي لاتزال تتحدى عاديات الزمن، حيث شهدت عهدًا لابد أن كتلة سكانها كانت فيه كبيرة. وبمساعدة من قِبَل اليد البشرية العاملة، نشر مجرى النيل المتدفق بالخصوبة، النماءَ على كل شبر من الأرض يمكن للفن أن يبلغها؛ بينما حال الفن نفسه دون أن يقوم التيار الجارف باكتساح كل شيء أمامه، فحوَّل السيل المتدفق إلى قنوات، حيث أمكن استخدام غضبه دون ضرر، ليصبح نعمة بدلاً من أن يصير نقمة.

عندما تم إنجاز هذه الأعمال العظيمة النافعة، وحين تحولت مصر كلها إلى روضة أتاحت بوفرة ضرورات الحياة بقليل من العناء، قادت سياسة الفراعنة إلى توظيف اليد العاملة للناس في إقامة أعمال ذات منفعة أقل، رغم أنها مثيرة للإعجاب. ومن هنا جاءت القصور الشاسعة لمدينة طِيبة الشهيرة؛ وجاء أبو الهول والمسلات والأهرامات التي حازت على إعجاب الأجيال الماضية، وستحظى بإعجاب نظيرتها القادمة. لكن ما تغير هو الشخصية التي وَسَمَت الطبيعة البشرية بيد القهر. لقد أُنْجِزَت هذه الأعمال، وانقضت هذه الأيام؛ وجَرَّاء سلسلة من الأسباب المادية والمعنوية التي لن نحاول تتبعها، تَغَيَّر وجه مصر كملامح أهلها. فبالنسبة للمصريين الذين يكدحون في حفر القنوات لتغطية حقولهم بثمار وافرة، كان العمل بلا شك سائغًا. وبالنسبة للمصريين الذين اعتادوا على العمل، كان إنشاء

قصر لِمَلِكِهِ أو معبد لمعبوده وسيلة لإنقاذه من شيطان البطالة الثقيل؛ لكن عندما نشأ جيل آخر لم يَجْنِ ثمار كَدِّه، يُدْفَعُون إلى عمل لا يَرون منه فائدة مَرْجُوَّة تحقيقًا لإرادة طاغية مستبد، وينخرطون في العمل من يوم إلى يوم ومن سنة إلى أخرى لإقامة صرح ضخم لا لشيء سوى لدفن جثمان واحد، صار العمل مُنَفِّرًا بالنسبة إليهم، وغرقوا على إثر ذلك في بلادة فاقد للحياة. هكذا تهيأوا للانقياد؛ واجتاح أرضهم الغزاة إثر الغزاة، وافترس لصٌ نظيره الآخر، إلى أن غَشِيِ الكُلَّ جمود الاستبداد التركي.

تجدر الإشارة إلى أن سكان مصر القدماء الذين أَنجزوا مثل هذه الأعمال ومنهم تَلَقَّى اليونانُ علومهم، يحملون نفس الشَّعْر المُجَعَّد المُلْتَف، المُمَيِّز حاليًا للزنجي الذي يشبههم في الملامح والبشرة. هؤلاء هم الرجال الذين كان لديهم الكثير من القوانين المعرفية والعلوم السياسية المثيرة لإعجابنا قبل أن يصل إلينا ما سَجَّلوه، أو على الأقل قبل أن نفهم منه أي شيء؛ بسبب كتاباتهم التي اندثرت منذ زمن بعيد - الهيروغليفية التي لم نفهمها -قبل أن يولد بَعْدُ أي مؤرخ في اليونان. كيف إذن يَعْتَبِرُ الكثير من الأوروبيين السلالة الحالية من الزنوج التي تسكن في نفس القارة أدنى تفوقًا من البهائم، وفي نفس الوقت يكون لدينا مثل هذه الأدلة على قدرة أسلافهم وما قاموا به من الزراعة؟ لسوء الحظ، فإن السكّان الحاليين كانوا يُعْتَبَرون - بشكل ساذج - السليل الطبيعي للمصريين القدماء، مع أنهم سلالة مختلطة تنحدر من مختلف المُغْتَصِبين الذين قبضوا على زمام الحكم في هذا البلد، ولم يتبق لديهم سوى بقايا من العِرْق الأصلي أو لا شيء منه؛ وبالتالي إذا رغبنا في الفصل الصحيح، فإن الزنجي قد سُلبت منه تلك الشهرة التي تُعتبر بالإنصاف حقًا له.

إن البواعث الافتراضية تجعلنا بلا شك نُرْجِع ذلك التفاوت الملموس إلى حالة البلد وسكانه؛ إلا أنه لا يوجد سبب كافٍ لفكرة وجود خلل مادي

في قدرات الشعب المُخْتَلِط الحالي في مصر، والظروف الطبيعية للبلد نفسه لم تشهد أي تغيير لتُقَلِّلَ من مزاياه القديمة. فالتربة التي تُجَدَّد سنويًّا بواسطة النيل نفسه من الواضح أنها لم تفقد شيئًا من خصوبتها السابقة؛ كما أن المحاصيل التي تنتجها الآن بقليل من العناية تثبت ذلك بشكل كاف؛ وتظل نفس وسائل معدلات الإنجاب في كامل نشاطها، لتُقَدِّمَ مواهب للعمل متى طُلب منها لذلك.

لا يزال المُناخ كذلك على نفس حاله ملائمًا للناس، كما هو الحال عندما كانت الأرض محتشدة بالسكان. فخلال الجزء الأكبر من السنة يكون الجو حارًّا للغاية، وبالنسبة للتربة التي تُسَخِّنُها أشعة الشمس القوية، لا تُرَطِّبها الأمطار المتفرقة، ولا الندى البارد؛ فَبِدء هطول الأمطار في إثيوبيا على النيل، ينشأ منه بخار الماء خلال النهار أكثر مما يمكن للهواء أن يحتفظ به وقت غياب الشمس، ومن ثم يقع هذا على شكل ندى أثناء الليل. وحيث تعمل الأسباب الطبيعية بشكل أكثر انتظامًا هنا من المناخات المتغيرة، فإن أول ظهور لهذا الندى يلاحَظ عادة في ليلة عيد القديس ميكال St. Michael، الذي يوافق يوم السابع عشر من يونيو في التقويم القبطي، وفي نفس الفترة يتوقف الوباء عن نشر الخراب؛ بحيث ترتبط هاتان الحالتان ببعضهما البعض في عقول الناس، وتُعْزَى إلى تَدَخُّل مُعْجِز من جبريل عليه السلام.

كان من المُتَصَوَّر في السابق أن وباء الشرق الرهيب، الذي يَسْقُط بسببه الكثير من الضحايا سنويًّا، يكون منشأه في مصر بشكل تلقائي؛ لكن العديد من الكُتَّاب المُحْدِثِين يرون أن هذا ليس هو الحال على الإطلاق؛ ويؤكد سونني Sonnini أن البلاد كانت قد خلت تمامًا من الطاعون لمدة اثني عشر عامًا حينما كان هناك، مع وجود تواصل مع أماكن أخرى انتشر فيها. في الواقع يمكن اعتبار هذه الحالة حُجَّة على فرضية سونني بدلاً من دعمها، في حين أنها ربما تميل أكثر لإثبات أن

المناخ ليس غير موات للصحة؛ وهذا الاختفاء المستمر للعدوى في منتصف الصيف -وفقًا لما قيل - يؤكد بقوة أنه لم يُعرف أحد قد تُوفي من هذه العلة[١].

إن الحالة المهيأة لقبول التوقعات، إذا كان لديهم ما هو ظاهر لتفسير ظاهرة طبيعية لم يتم التحقق من أسبابها، قد يُبَيِّن سبب هذه التهمة الخطيرة التي يتم توجيهها لبلد ما، لا يستحق بأي حال أن تنُسب إليه. نحن غير مُلِمّين بالسبب الحقيقي للطاعون؛ لكن تَبين أنه يحدث في مصر. حقيقة أن الأرض تمتلئ بالماء الذي يصير راكدًا ثم يتبخر ويترك رواسب متنوعة على السطح الرطب، ليجف من حرارة الشمس؛ ويَدعمُ تلك البيئة الضارة، جراثيم كافية لتوليد الطاعون، الذي لابد وأن ينبعث من هذا الجو الفاسد. وتبعًا لذلك نُسبت الأمراض لمصر وأيدت الآراء أنها مكان انبثاقها.

لكن هناك الكثير من الافتراضات غير المبررة في ذلك؛ إذ أن التبخر يتم بسرعة كبيرة فيترك الكثير من المواد للتعفن، بينما هواء المناخ الجاف النقي، والرياح الشمالية الصحية التي تهب بقوة وثبات كبير معظم أوقات العام، لا تسمح للبخار الضار الناشئ أن يهبط مرة أخرى أو يحوم فوق الأرض ويُفسِد الهواء المحيط. ومن أعداد الأسماك التي تُخَلّفُها المياه المتراجعة وجموع الضفادع التي تَنْتُج سنويًا، يمكن أن ندرك ما يتولد عن

(١) ذكر علماء الحملة الفرنسية، الطاعون، على رأس الأمراض القاتلة في مصر، وأنه يكاد لا ينقطع في القاهرة والإسكندرية بصفة خاصة، وذكروا أن آخر نوباته الكبرى، والتي اندلعت عام ١٧٩١م، قد كلفت القاهرة نحو ثلث سكانها، انظر: ج. دي شابرول، "**دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين**"، ضمن: وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، مج. ١ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢م): ٥٤ -٥٥؛ وانظر كذلك الهامش عند: جراتيان لوبير، "**دراسة عن مدينة الإسكندرية**"، في وصف مصر، مج. ٣: ٢٩٦ -٢٧٧ (المترجم).

هذا المقدار الكبير من المادة الحيوانية الفاسدة؛ ولكن لحسن الحظ يحول دون ذلك العديد من أسراب الطيور المحتشدة حول المياه المتراجعة، تلتهم الأسماك والضفادع في نهم ولا تترك منها إلا القليل. مَنْ لا يَرى هنا حكمة العناية الإلهية التي تمنع وقوع شر وشيك من خلال الوسائل منقطعة النظير، ومنح العديد من المخلوقات الحَيَّة المُسَاعِدَة للبقاء في مكان يمكن أن يكون مُهلِكًا للإنسان؟

مِنْ وجهة النظر هذه التي تتفق مع حقيقة صحية المناخ، يبدو أن الرواسب النيلية غير قادرة على إلحاق سوى القليل من الضرر بالصحة؛ ومع ذلك، حتى لو كان هناك مِثْل هذا المقدار من التَّعَفُّن، كما افترضه أناس يقبعون بعيدًا في حجراتهم الخاصة، لا يوجد سبب للاعتقاد أنه سيكون قادرًا على توليد الطاعون.

من غير المتوقع أن يكون الإنسان في هذا البلد معافى من الأمراض التي يكون فريسة لها في كل أنحاء العالم؛ لكن من المؤكد أنه سيكون من الجور وَسْم هذا البلد بأنه غير صحي. يطالب سونني بالتجربة عن ثقة، شاهدًا على نقاوة وسلامة هوائه، وهو ما أكده السيد أنتيس Mr. Antes، الذي أقام فيه اثني عشر عامًا.

من المحتمل أن يكون جفاف بيئته التي تركت آثارًا واضحة في الأجزاء الرملية، وانتظام مواسمه، أبطلت الآثار الكريهة للخمول، ومياه النيل الراكدة.

أما الأمراض التي تسود هنا وقد تكون غير معروفة في أي بلد آخر بدرجة ما، فهي داء الفيل Elephantiasis، أو جذام العرب leprosy of the Arabs، كما يُطلق عليه، والتهاب العينين. وتكون حالات إصابة العينين بشكل خاص متكررة وخطيرة، وغالبًا ما تؤدي إلى فقدان أحد هذين العضوين أو كليهما، ومن الراجح أنها تُعزى بشكل رئيسي -إن لم

يكن بشكل كامل -إلى الجسيمات الحادة التي تدفعها الرياح من الصحارى الرملية، ومن تربة مُشَرَّبة بشدة بالأملاح القلوية.[1] لا يمكننا إلقاء النظر على تربة مصر وثمارها الرائعة، دون أن يتحول انتباهنا مباشرة إلى:

(١) المقصود هو "الرَّمَد"، الذي أشار إليه هيرودوت منذ القِدم، وقد عانى منه كذلك جنود الحملة الفرنسية، وجاء في وصف مصر أن كل مواطن من بين كل خمسة كان يضع عصابة على عينه، لإصابته به، انظر، شابرول، "**دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر**": ٥٦ (المترجم).

نَـهْـر النِّيـل

مصدر الخصوبة الذي لا ينضب. ينبع هذا النهر الشهير في بلدة جِش Geesh، الواقعة في جوجام Gojam[1] جنوبي الحَبَشَة، عند خط عرض 10,59,25 درجة شمالاً، وخط طول 36,55,30 درجة شرق خط جرينتش Greenwich يصعد ميلين فوق مستوى سطح البحر عند قمة المنبع؛ ومن ثم يتدفق خلال الحبشة وسِنَّار والنوبة، فيزداد حجمه من خلال تدفق الروافد المختلفة، وينحدر بسرعة في أماكن مختلفة عن طريق الشلالات، التي من أحدها يندفع الماء إلى الأسفل مرة واحدة حوالي مائتين وثمانين قدمًا، حتى يصل إلى إقليم طيبة ومساره المحدود بالوادي الضيق بين مرتفعين جبليين، حيث كان يوجد فيما مضى مآوي سكنة الكهوف Troglodytes، أول من قطن هذه البلاد. وفي جوار سييني Syene القديمة، التي تسمى الآن أَسْوَان، عند أقصى حدود مصر العليا، يوجد الشَّلّال cataract الأخير؛ إذا كان من الممكن أن يُطلق عليه ذلك، وهو ما سَيُقْتَبَس منه في أمريكا الشمالية الاسم المناسب للمنحدرات النهرية. ومن هناك إلى البحر المتوسط، يُعَد النيل قابلاً للملاحة بواسطة السفن ذات الحجم الكبير. فالزوارق Canjas، أو القوارب المستخدمة في التجارة النهرية، والتي تتلاءم بشكل جيد مع الظروف الخاصة للنهر، وتجتمع فيها السرعة والأمان والراحة.

وقد تَحَصَّل مراد بك المشهور على بعض السفن التي تم بناؤها وتجهيزها على النمط الأوروبي، واشترى بضعة سفن أخرى، تكبد فيها نفقات باهظة لأغراض تافهة، أكبرها تُقِل أربعة وعشرين مِدفعًا، زوِّدت بطاقم جيد، يكون في الأغلب من يوناني الأرخبيل. ولديه حوالي ستة من هذه السفن، راسية قبالة الجيزة أغلب أوقات العام، لأنها لا يمكنها الإبحار إلا حين

(١) إحدى أقاليم إثيوبيا الحالية (المترجم).

يكون النهر في ارتفاع كبير. إذا استطاعت أيًّا من القوى الأوروبية الاستمرار في احتلال هذا البلد، فلربما تُثْبِت ضحالة النيل المعتادة أنه لا عقبة أمام إنشاء أي قوة بحرية قد تكون ذات فائدة، أكثر من وجود البحيرات الأمريكية في الحرب الأخيرة(١). وبالنسبة لنقل السلع أو لأغراض الحرب، فإن النيل ليس له أهمية تذكر، مقارنة بتأثيره على زراعة البلاد؛ فما هي إلا صحراء قاحلة، تجعلها مياه النيل واحدة من أكثر المناطق إنتاجًا على وجه الأرض. ويَحدث ذلك نتيجة لفيضانه السنوي الذي يرقبه الناس بقلق، بوصفه مُسَبِّبًا للوفرة أو النُّدْرَة. يبدأ موسم الأمطار في المناطق المدارية عندما يكون نجم الشِّعْرى اليمانية Dog-star في الطالع، فتمتلئ على إثر ذلك جميع الأنهار بسبب السيول المائية المتساقطة من السُّحُب، آخذة طريقها إلى البحر عبر مجرى النيل الذي تتدفق إليه؛ ومن ثم يستمر تدفقه من تواصل هذا المدد. ومع ذلك، فإن الزيادة لا تكون كبيرة لتصبح هدفًا للإشعار العام حتى نهاية يونيو تقريبًا، عندما يتم الإعلان عن مقدارها في شوارع القاهرة بواسطة شخص يتم تعيينه لهذا الغرض. فبمجرد أن يرتفع إلى ستة عشر ذراعًا، يُعْلَن ذلك من خلال صيحة: "وفاءُ اللّه" ، وإذا وصل إلى عشرين، وهو ما يكفي لجعل كامل الأرض صالحة للزراعة، يصيح الرجل: "مِنْ جَبَل اللّه جَبَل"، مما يعني أن المياه تكفي لغَمْر البلاد وصولاً إلى طعام الجبال على كلا الجانبين.

بالنسبة لبعض قُرَّائنا، قد يتطلب هذا تفسيرًا. فوادي مصر السفلي مستوي تقريبًا، لكن ضفتي النيل تُعَدُّ أعلى أجزائه، والتي منها تنحدر رويدًا رويدًا نحو الجبال. كل هذه الأرض التي تعاني غالبًا من جفاف دائم

(١) يقصد حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥ -١٧٨٣م) عن بريطانيا، والتي قامت على أساسها الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

في مواسم أخرى، تحتاج لغمرها بالفيضان السنوي للنهر، ومياهه العكرة التي تزودها في نفس الوقت بالسماد من تلك الرواسب التي ترسبها وفضلات المحصول السابق، والتي تجعلها نافعة لنمو النبات من خلال عملية التَّعَفُّن التي تنتجها.

إن ارتفاع ضفاف النيل يمنع المياه من الوصول إلى الأرض التي مِن خلفها، إلا في حوادث استثنائية، وهو ما من شأنه في الواقع أن يهدد بقحط عام.

وبناء على ذلك، شُقَّت القنوات على أيدي السكان القدماء، لنقل المياه إلى كامل أراضي البلاد حينما تبلغ ارتفاعًا مناسبًا؛ وأخرى لنقلها عندما تكون وفيرة للغاية إلى البحيرات في الصحراء الليبية[1]. ويتم إغلاق فم هذه القنوات بالسدود الترابية التي يتم كسرها عندما تصل المياه إلى الدرجة المطلوبة من الزيادة. وإذا كان الغَمْرُ وافرًا للغاية يتم تحويل المياه الفائضة إلى البحيرات، وبالتالي يتم منع الضرر؛ وإذا كانت كافية تمامًا لتغطية كامل الأرض، باستثناء ضفاف النهر، يتم إنتاج محصول وفير بقليل من العمالة؛ وإذا تم تغطية المساحات السفلية فقط بتدفق المياه الطبيعي، يتم اللجوء إلى استخدام الآلات لنقل مياه الفيضان عندما يكون في ارتفاعه، وبالتالي تُمنح الخصوبة للحقول التي تركها الكسل والجهل غير منتجة.

ومن المرغوب فيه للغاية حينذاك معرفة الوقت المناسب لفتح القنوات، وحجم الماء الذي سيتسرب للسهول، وربما أدى هذا الشأن إلى منفعة المجتمع بشكل أكبر، وهو ما اتضح حاليًا؛ ولهذا تم ابتكار مقياس النيل. لقد تطلب الأمر علومًا أقل بكثير مما امتلكته مصر القديمة، لصنع هذا

---

(١) المقصود الصحراء الغربية (المترجم).

العمود المتدرج المُثَبَّت في مياه الفيضان. ولعلهم استخدموا عمودًا مختلفًا اختلافًا بسيطًا عما هو مستخدم حاليًا من قبل الحكومة في القاهرة.

ومن أجل رسم تخطيطي دقيق له، ومنظرًا داخليًّا وخارجيًّا للمبنى الذي يحويه، نحيل قراءنا إلى اللوحات المرفقة، وسنشرع في وصفه، من خلال كلام السيد بروس Mr. Bruce، الذي يبدو أنه فحصه بعناية، وقَدَّم سردًا دقيقًا لذلك. رغم أن هذا ليس هو الأداة الوحيدة لقياس ارتفاع النيل على طول مساره، لأننا علمنا من قبل السيد لانجلز Mr. Langles أنه يوجد ما لا يقل عن خمسة عشر مقياسًا للنيل بين جزيرة إلفنتين Elephantina[١] ومصب النهر[٢].

(١) هي جزيرة وسط النيل في أسوان الحالية، على مقربة من الشلال الأول عند حدود مصر العليا مع النوبة، طولها حوالي ألف ومائتي متر؛ ولأنها كانت ميناءً مهمًا لاستقبال العاج الأفريقي منذ القدم، أُطلق عليها باليونانية "إلفنتين" أي سن الفيل (المترجم).

(٢) انظر: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، تحقيق أيمن فؤاد سيد (لندن: دار الفرقان، ٢٠٠١ -٢٠٠٤م)، مج. ١: ١٥٠ وما يليها (المترجم).

مِقْيَـاسُ النِّيــل

"على نقطة من جزيرة الرَّوْضَة[١] الواقعة بين الجيزة والقاهرة بالقرب من منتصف النهر ناحية الجيزة، يوجد برج دائري، وفي وسط هذا المبنى توجد بئر قريبة، أو حوض مُبَطَّن بالرخام، يصل النيل إليه بِحُرِّية من خلال فتحة كبيرة مثل الكُوَّة، وقاع هذه البئر تكون على نفس مستوى قاع النهر. وفي منتصف هذه البئر، عمود رفيع - على قدر ما أذكر - له ثمانية أوجه من الرخام الأزرق والأبيض، وفي الأسفل إذا سُمح لك بالنزول، تكون على نفس مستوى قاعدة العمود وقاع النهر. قُسِّم هذا العمود إلى عشرين وحدة قياس تسمى "الذِّراع البَلَدي"، كل منها اثنين وعشرين بوصة. لم يتم تقسيم وحدتي القياس السفليتين على الإطلاق، بل تم تركهما دون علامة للوقوف على كمية الرواسب التي تترسب هناك، والتي تحتل مكان المياه. هكذا تم تقسيم اثنين من وحدات القياس على اليمين إلى أربعة وعشرين إصبعًا لكل منهما؛ ثم على اليسار تم تقسيم أربعة من وحدات القياس إلى أربعة

---

(١) عُرفت في صدر الإسلام بالجزيرة أو جزيرة مصر، ثم عُرفت بالرَّوْضَة نسبة إلى البستان الذي أنشأه في نهايتها الشمالية الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي في مستهل القرن السادس الهجري، انظر مزيدًا عنها: المقريزي، **الخطط**، مج. ٣: ٥٦٨ -٥٨٨؛ جلال الدين السيوطي، **كوكب الروضة في تاريخ المنيل وجزيرة الروضة**، تحقيق محمد الششتاوي (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١م)؛ جومار، وصف مدينة مصر وقلعة الجبل، نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٨م): ٣٣٣ -٣٣٨؛ إدوارد وليم لين، **القاهرة منتصف القرن التاسع عشر**، ترجمه وحققه وعلق عليه أحمد سالم سالم (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٧م): ٢٧١ -٢٧٧؛ على مبارك، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة** (القاهرة: طبعة بولاق، ١٣٠٤هـ)، مج. ١٨: ٧ -٢٦؛ ؛ حسن قاسم، **المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية**، مج ٦، تحقيق أحمد سالم سالم (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٨م): ١٣٨ (المترجم).

وعشرين إصبعًا. ثم على اليمين أربعة. وعلى اليسار أربعة أخرى. ومرة أخرى أربعة على اليمين؛ والتي تُكَمِّل عدد ثمانية عشر من وحدات القياس المُعَلَّمَة على القسم الأول من العمود، كل واحدة اثنين وعشرين بوصة. وهو بالكامل -سواء المحتوي على علامات أو الخالي منها -يصل إلى ستة وثلاثين قدمًا وثمانية بوصات إنجليزية".

عندما فتح الأتراك هذا البلد، فرضوا عليه ضريبة. مع ذلك، فكل ما يملكه من ثروة يتمثل في إنتاجه، لذا سيكون من العبث المطالبة بهذه الضريبة إذا أدى نقص الفيضان إلى قحط الأرض. وعليه فإن المقياس له أهمية قصوى، ليس للشعب فقط، وإنما للحاكم أيضًا، لأنه يُبَيّن حجم الرسوم التي ستتيح ظروف البلاد فرضها. فإذا كانت الأرض الصالحة للزراعة من خلال التدفق الزائد للنيل قليلة جدًا، أو بالكاد كافية لمنع الجوع عن الناس، يجب على الحاكم أن يتخلى بالضرورة عن ضريبته. وعندما يصل الفيضان إلى حد معين، سيتيح الإنتاج للحاكم أخذ حصة محددة؛ وهذا الذي يتم تحديده إذا صعد الماء إلى ارتفاع ستة عشر ذراعًا في المقياس، يتم الإعلان عنه للناس بصيحة "وفاءُ اللّه"، التي من المفترض أن يفهموا من خلالها وجوب استيفاء الضريبة. ومع ذلك، من الضروري في هذه الحالة قياس الأرض من أجل التأكد من كمية المياه الفائضة، والتي يتعين على شاغل الأرض دفع كامل الضريبة عنها؛ فالأرض التي تم سقيها بالمياه بواسطة الآلات يُدفع مقابلها النصف فقط، والنصف الآخر مسموح به كتعويض عن تكلفة العمل الإضافي المطلوب؛ والأرض غير القادرة على تلقي المنفعة، وتُركت غير مزروعة، تظل بالتالي مُعفاة من الضرائب. وإذا

ارتفع الماء إلى عشرين ذراعًا، تُعْلِن الصيحة "مِنْ جَبَل الله جَبَل" أن الأرض كلها ستُخَصَّب وتصبح خاضعة للضريبة.

وسط هذه المساحة من المياه التي تغطي كامل الأراضي المنخفضة، تَظهر ضفاف النيل مُزَيَّنَة بشكل جميل بالقرى المُنَمَّقة بأشجار النخيل الكثيرة. وبمجرد أن تتراجع مياه النهر من الحقول، تُزرع بكل أنواع الحبوب؛ وعلى اعتبار أن الحرارة والرطوبة فرصة لإنبات البذور سريعًا، سرعان ما يكتسي وجه البلاد بالمروج الخضراء المُحَبَّبَة، والتي تُوشَّى خلال وقت قصير بألوان النباتات المُزْهِرَة والذُّرَة الناضجة.

القَـنَـوات

يقول الكُتَّاب العرب عن القنوات المذكورة الناقلة لمياه النيل: إن الواقعة في القاهرة منها مرصوفة بالرخام؛ على الرغم من أنه في الوقت الحالي لا يمكن تَبَيُّن أي شيء في قاعها إلا الوحل. خلال جزء من السنة تكون في الواقع مجرد مكان للقمامة، تحوي القاذورات بشكل عام؛ لكن يتم تنظيفها استعدادًا لارتفاع النيل، فتتحول إلى شارع يكون مزدحماً مثله مثل أي طريق آخر في المدينة، فيشهد تواجد المشعوذين والحواة والراقصات، الذين يعرضون أعمالهم على الملأ. وعندما يتدفق النيل إليها، تطفو القوارب والمراكب الغنية بالزينة عليها، ولا تزال ترتدي ثوب الاحتفال مع تغير الحال. فبمجرد أن تصل المياه إلى الارتفاع المناسب، يتم فتح سَد هذه القناة الكبرى، أو الخليج(١) في احتفال عظيم؛ كما هو متوقع في العاصمة في مناسبة تمثل أهمية حقيقية للبلاد. ويَغْشَى المكان حاشية كبيرة على صهوة الجياد، الباشا والبكوات الذين تُنْصَب لهم خيمة على جانب القناة، ويركبون إلى السَّد المقام على فم القناة عندما يبدأ ماء النهر في الارتفاع، فيضربه الباشا برمحه، ثم يرجع إلى الخيمة.

---

(١) يقصد"الخليج المصري"، الذي كان يُسمى في صدر الإسلام "خليج أمير المؤمنين"، وكان يمر بظاهر مدينة الفسطاط، إلى أن بنيت القاهرة فأصبح محاذيًا لسورها الغربي، ومع امتداد عمران المدينة في العصور اللاحقة صار يخترق المدينة، وصارت المنازل تطل عليه من الجانبين، وكان مأخذ الخليج أو "فم الخليج"، يقع على النيل عند قناطر مجرى العيون شمالي الفسطاط، وظل الخليج قائمًا إلى أن بدأوا في ردمه عام ١٨٩٧م عندما فقد وظيفته وصار مكانًا للنفايات والأوبئة، ليحل محله شارع "الخليج المصري" أو حاليًا "شارع بورسعيد"، انظر: المقريزي، **الخطط**، مج ٣: ٣٦٥ - ٤٧٩ (المترجم).

وينهال الناس فورًا للعمل على السَّد، فيقومون بكسره؛ ثم يُلقي الباشا بضع قطع صغيرة من العملة في الماء؛ ويُلقي الناس المكسرات والبطيخ وفواكه أخرى في قارب جاهز لهذه المناسبة؛ ويتم إطلاق الألعاب النارية، ويُختتم اليوم وسط أكثر مفردات الاحتفال مجونًا[(١)].

وبما أننا نستعرض آثار مصر، ومع وجوب اعتبار هذه القنوات أولها من حيث الفترة الزمنية وكذلك المنفعة، ننجذب بطبيعة الحال إلى تلك التي عَلَقَت أكثر بخيالنا.

---

(١) انظر مزيدًا عن هذا الاحتفال: جومار، **وصف مدينة القاهرة**: ٣٠١٧ -٣٢٠؛ إدوارد وليم لين، **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم**، ترجمة سهير دسوم (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م): ٥١١ -٥١٦ (المترجم).

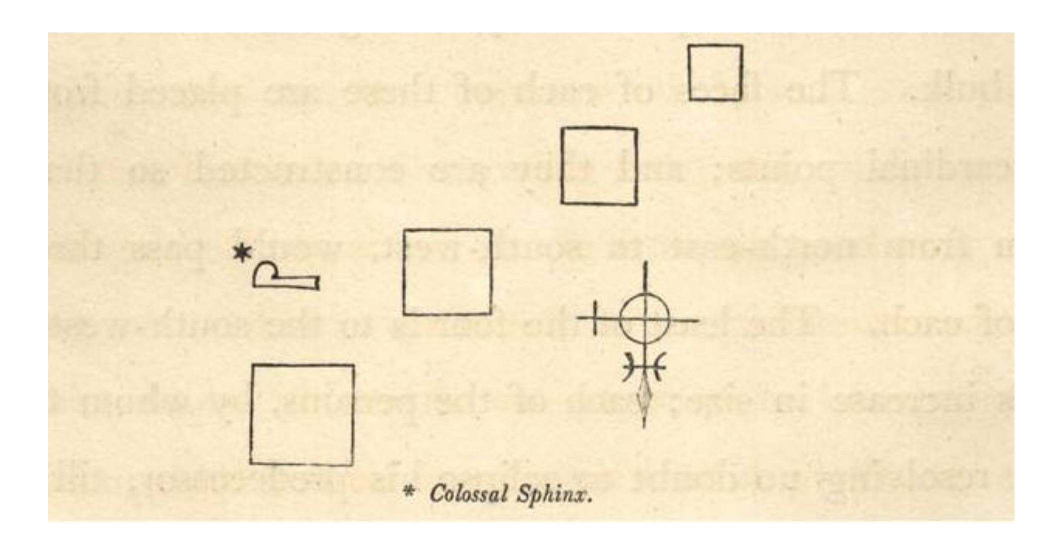
الأهْـــرَام

تظهر هذه الأبنية بأعداد كبيرة بين القاهرة ومِدون Meduun[١] متفاوتة في الحجم والمواد والبنية المعمارية؛ لكن تلك الأقرب إلى القاهرة، والتي يُطلق عليها أهرامات الجيزة، هي الأجدر بالاهتمام. تمتاز أربعة منها عن البقية خاصة بعظم حجمها، رغم اختلافها في الحجم عن بعضها. تم إنشاء أوجه كل هرم من هذه الأهرام في مقابل الجهات الأربع الرئيسية. وهي مبنية بحيث يمر خط من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي عبر قاعدة كل منها. أصغر هذه الأربعة تقع إلى الجنوب الغربي، والأخرى تزداد في الحجم؛ فكل شخص من الذين أمروا ببنائها قرر دون شك التفوق على سلفه، إلى أن حالت ضخامة ونفقات الأخير دون محاولة أخرى للتغلب عليه؛ عندما صارت ظروف العصر أقل ملاءمة لإهدار الكثير من المجهود في سبيل هذا القدر القليل من المنفعة، حتى بالنسبة للإنسان الوحيد الذي كان مقصودًا بذلك.

في الواقع هناك اعتقاد بأن الأهرام كانت عبارة عن معابد أو مذابح مخصصة لعبادة الشمس. لكن كي نفرض أن يكون هذا الصرح العظيم والغرفة الضيقة التي مُنع الوصول إليها بعناية، كان المقصود منهما أن يصيرا معبدًا، هو أمر مناف للعقل إلى حد كبير؛ فماذا عن حجم التضحيات المبذولة لتشييد بناء بهذا الارتفاع ينتهي إلى نقطة معينة، فضلاً عن أن جوانبه جُعلت ملساء كأنها تُحبِط أي محاولات لصعودها؟ مع ذلك يرى كاتب المقال حول هذا الموضوع في الموسوعة البريطانية، أن هذا

(١) هي "مَيْدوم" لكن ذكرتها بعض المصادر العربية "مِدون"؛ وهي الآن إحدى القرى التابعة لمركز الواسطى بمحافظة بني سويف، انظر: المقريزي، **الخطط**، مج ١: ٣١٣ (المترجم).

الافتراض له أساس كذلك، وحسبما تدعمه الروايات التي لدينا من المجتمع الآسيوي، فإن الهندوس أقاموا نُصُبًا كبيرة لمعبوديهما سييفا Seeva ومهديو Mehedeo مخروطية أو هرمية الشكل. لكن إذا كانت الأهرام هي نُصُب لمعبود مصري، فلا يمكن إذن أن تكون محصورة في النطاق الممتد بين مِدون والقاهرة، وتتواجد هناك بمثل هذه الأعداد، وتتكرر بنفس الوضع الذي عليه هذه الأربعة المذكورة، كما تظهر في الرسم التخطيطي المرفق للسيد ريفيلي Reveley.


* Colossal Sphinx.

قد تكون أصل تسمية الهرم تعود لما قَدَّمه مؤخرًا السيد سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy في المجلة الموسوعية Magazin encyclopedique، والذي ربما يُعَدُّ دليلاً يؤيد الفرضية المذكورة أعلاه؛ لأنه يُرْجِعها بشكل معقول لأصول مصرية، كتعبير عن شيء مقدس يستخدمه الناس. لكن ناهيك عن أن الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من التأصيل اللفظي غالبًا ما يكون خياليًّا وفي أحسن الأحوال ملتبسًا، فإن هذا الاشتقاق يتماشى مع الضريح مثل تماشيه مع المَعْبَد، لأنه لم يكن

هناك شيء مقدس بالنسبة للمصريين القدماء أكثر من ذلك المكان الذي يحوي جثمان الميت.

حاول رجلٌ مُبْتَكِرٌ من ألمانيا يدعى السيد فيت Witte، وهو الذي لم يرها أبدًا من قبل، الحفاظ على فرضية كونها مِنْ عَمَل الطبيعة، وليس عملاً فنيًّا بشريًّا؛ وذهب إلى حد نسبة أطلال برسيبوليس Persepolis، وبعلبك Balbec، وتدمر Palmyra، وقصور الإنكا incas في بيرو peru، ومعبد جوبيتر Jupiter في جرجينتي Girgenti بصقلية، وحتى ستونهنج Stonehenge في سهل ساليزبوري Salisbury، إلى نفس المنشأ. ويتصور سيد برايانت Bryant كذلك، أن الثلاثة الكبار على الأقل ليست بناءً اصطناعيًّا حجريًّا هائلاً، ولكنها من صخر أصم مقطوع على شكل هرمي، تم تغطيته بالحجارة.

واقترب السيد بروس في رأيه من هذا النهج؛ إذ يبدو من المحتمل بشكل كبير، أنه بقدر ما كان من الإمكان جعل طبقة الصخر التي أُنشأت عليها نافعة لهذا الغرض، تم استخدامها في الجزء السفلي من البناء. ومع ذلك يبدو من غير شك أن كل ما فوق الدهليز الكبير وغرفة الدفن على الأقل يجب أن يكون عملاً فنيًّا من صنع الإنسان؛ لأنه كما يلاحظ السيد ريفيلي ويتطابق مع شهادة الآخرين، فإن الدهليز الكبير والغرفة والتابوت، هي من الجرانيت؛ الذي من غير الممكن جلبه إلى الداخل من خلال الممر المؤدي لذلك من جانب الهرم؛ ولا يمكن أن يكون طبيعيًّا وسط كتلة من الحجر الجيري الرخو.

عند الاقتراب من أهرامات الجيزة، يكون الأول الذي يتقدمها هو الأكبر، قائمًا على تلة من الصخر، على ارتفاع حوالي مائة قدم عن السهل أدناه. قاعدته مدفونة في الرمال التي ترتفع الآن على شكل منحدر على

الجانب الشمالي، يدخل في نطاقها مدماكي المدخل الذي كان سابقًا في منتصف الطريق بين القاعدة والقمة. هذا الهرم، بالإضافة إلى الأخرى، مبني من حجر أصلب قليلاً من الطباشير، ضارب للبياض عند الخدش، لكنه مع التعرض للهواء يصير بُنيًّا مائلاً إلى الصفرة، والأمر نفسه مع الصخرة التي يقوم عليها.

كان في الأصل قد تمت تكسيته بحجر مختلف، كما يتضح من اتفاق شهادة الكُتَّاب القدماء؛ وبسبب هذا الأمر، فإن المداميك الحجرية التي تُعطي شَكْل درجات خارجية، ليست متجانسة في الحجم، لأنها تتفاوت بين ارتفاع ما يقرب من خمسة أقدام إلى أكثر بقليل من قدمين، وكذلك لا تتناقص بانتظام، وهو ما من شأنه أن يؤدي دون شك إلى حالة غير مقصودة كان ينبغي أن تكون مستترة.

لا يزال جزءًا كبيرًا من غلاف الهرم الثاني موجودًا عند القمة. ومن خلال الثقوب الظاهرة في العديد من الأماكن التي تمت إزالتها، يتضح أنه دُمِّرَ على يد الإنسان. يقول العديد من الكُتَّاب عن هذا الغلاف أنه مصنوع من الجرانيت؛ لكنه ضارب إلى البياض على عكس الجرانيت إما أحمر أو رمادي.

والقمة التي تتآكل بمرور الوقت، مع أنه لا أحد يستطيع تسلق الواجهة النحيتة، لا تبلى كما يبلى الجرانيت، بل تصمد في بعض المواضع. وقد تم تجريد جميع الأهرام الأخرى من واجهتها بالكامل.

ينقص الهرم الكبير حوالي ثمانية أقدام من ارتفاعه من الأعلى، إذ تم انتزاع العديد من الأحجار، أو تم إلقاؤها من قبل بعض الناس بدافع من الاستهتار. يقول الدكتور بوكوك Dr. Pococke أن الدورة العلوية

تتكون من تسعة أحجار عندما رآها، وأن اثنان آخران كانا ناقصين لاستكمال الدورة[١].

وقد وجد السيد ماير سبعة فقط؛ وهكذا يكون قد تم إلقاء اثنان منها منذ زمن الدكتور بوكوك. ولرؤية القمة كما شاهدها السيد ماير، انظر اللوحة (٣) التي يتم فيها استعراض كل حجر بشكله الحقيقي.

ليس معروفًا بشكل مؤكد في أي فترة ومِنْ قِبَل مَنْ تم فتح هذا الهرم. وقد روى المؤرخ العربي، ابن عبد الحكيم، متحدثًا عن عجائب مصر، أن المأمون، خليفة بغداد، فتحه منذ عشرة قرون مضت، وأنه وجد فيه باتجاه القمة، غرفة بها حجر أجوف، به تمثال على صورة آدمية، بداخله جسد رجل، عليه دِرْعٌ من ذهب مُزيَّن بالجواهر؛ وعلى صدره وُضع سيف لا يُقَدَّر بثمن، وعند رأسه حجر ياقوت أحمر في حجم البيضة، يضيء كضوء النهار، وعليه كتابات بحروف لا يفهمها أحد[٢].

لكن أيًّا كان من فتحه، أو وُجِد فيه آنذاك، لم يتبق شيء الآن باستثناء مدفن فارغ. وللوصول إلى هناك، تنزل أولاً إلى ممر منحدر أو دهليز بطول تسعة وسبعين قدمًا، وارتفاع أربعة أقدام، وعرض ثلاثة أقدام وأربع بوصات ونصف. في نهاية هذا يوجد فضاء غير منتظم، اتساعه ثمانية أقدام ونصف، وارتفاعه نحو عشرة أقدام ونصف، تَشَكَل من انكسار طريق الوصول للممر الثاني، الذي يمتد منحدرًا إلى أعلى مائة واثنان من الأقدام، واتساعه ثلاثة أقدام وبوصتين، وارتفاعه أربعة أقدام وثلاث

(١) انظر وصف بوكوك للأهرام عام ١٧٤٣م:

Richard Pococke, *A description of the East and some other countries* (London, 1743), Vol. 1, pp. 39-48. (المترجم)

(٢) انظر: المقريزي، **الخطط**، مج. ١: ٣٣٠ وما يليها (المترجم).

بوصات. ومِن عنده توجد فتحة بئر، سعتها خمسة عشر بوصة، وارتفاعها ثلاثة أقدام وأربع بوصات. أما الدهليز الثالث أو الكبير، الذي ينتهي لأعلى بميول حاد، يتشكل من بروز كل مدماك حجري قليلاً عن الذي يدنوه، فيواصل الصعود مائة وثمانية وعشرون قدمًا إضافية، باتساع ستة أقدام وتسعة بوصات، وارتفاع ثمانية وثلاثين قدمًا وستة بوصات، قيست بزاوية معتدلة. وعلى كل جانب يوجد مصطبة، ارتفاعها يقترب من ثلاثة عشر بوصة، وكذلك العرض. ولدى نهاية هذا الدهليز يوجد ممر أفقي يقود إلى الغرفة الرئيسية، يبلغ ارتفاع مدخله ثلاثة أقدام وتسعة بوصات، وعرضه ثلاثة أقدام وبوصتين.

ويبلغ طول الغرفة نفسها خمسة وثلاثين قدمًا، وعرضها اثنين وعشرين قدمًا وخمسة بوصات، وارتفاعها خمسة وعشرين قدمًا ونصف. وتحتوي على التابوت الحجري الذي يبلغ طوله من الخارج سبعة أقدام وستة بوصات، وعرضه ثلاثة أقدام وستة بوصات، وارتفاعه ثلاثة أقدام وتسعة بوصات، وسمكه ستة بوصات. ومِن مكان الهبوط في نهاية الممر الثاني يؤدي دهليز أفقي إلى غرفة أخرى أسفل السابقة. هذه الغرفة ذات سقف غير مسطح، جملوني الشكل، طولها ثمانية عشر قدمًا وبوصتين، وعرضها اثني عشر قدمًا وتسعة بوصات، وكذلك الارتفاع. الممر الواصل إليها طوله مائة وواحد وعشرون قدمًا وسبع بوصات، وعرضه ثلاثة أقدام وأربع بوصات، واتساعه ثلاثة أقدام وتسع بوصات. وقد تم أخذ هذه المقاييس من قبل السيد جان باتيست ريكورد Jean Baptiste Record ، من القاهرة في سبتمبر ١٧٨٤م، بمقياس القدم الفرنسي، الذي يقل هنا عن مثيله الإنجليزي.

تم تسجيل أبعاد مختلفة للهرم نفسه من قبل كُتَّاب مختلفين. فقد أعطى الكابتن الراحل ريو captain Riou للسيد ريفيلي المقاييس التالية، التي أخذها والده، ستيفن ريو Stephen Riou، المهندس صاحب الكفاءة الموثوقة، في عام ١٧٥٤ أو ١٧٥٥م. وهي طول القاعدة سبعمائة

وتسع وخمسين قدمًا، والارتفاع العمودي أربعمائة وواحد وأربعين. ويضيف السيد دالتون Dalton اثني عشر قدمًا للقاعدة، وقدمين للارتفاع العمودي. ولكن إذا كانت هناك مائتان وسبع أو ثمان درجات، وهو أمر مؤكد بشكل واضح.

وهناك تفاوت في هذه الدرجات -كما يؤكد الدكتور بوكوك - من قدمين ونصف إلى أربعة أقدام في الارتفاع، فيبدو من الصعب أن يكون ارتفاع الهرم أكبر مما حَدَّدَه هؤلاء السادة. ويحدد السيد ريكورد مقياس القاعدة على الجانب الشمالي بستمائة وثمانية وأربعين قدمًا وست بوصات؛ والتل تحت المدخل خمس وخمسين قدمًا وست بوصات، ومن قمة التل إلى قمة الهرم خمسمائة وثلاثة وتسعين قدمًا وست بوصات، بحيث يكون الطول الكلي ستمائة وأربعين قدمًا. إذا كان السيد ريكورد يقصد هذا للارتفاع العمودي، فإن الزاوية في قمة الهرم لابد أن تكون حادة للغاية، وهي ليست كذلك بأي حال؛ من المفترض إذن أن يكون قياسه مأخوذًا بشكل طبيعي من الارتفاع المائل، وفي هذه الحالة ربما يقترب من الحقيقة.

كان يجب أن نكون قد اكتفينا فيما يتعلق بهذا الموضوع، لو لم نعتبر أنه من الأهمية بمكان تسوية نقطة تعد مثار خلاف كبير بين الرحالة أصحاب المكانة المرموقة، والتي يَعْتَمِد عليها التصميم الدقيق لشكل الهرم. يمكننا أن نثق بشكل كبير في قياسات السيد ريو، والسيد دالتوم Daltom؛ التي يؤيدها السيد جيوبرت Giobert، وهو مهندس فرنسي يحدد ارتفاع الهرم بأربعمائة وثمان وأربعين قدمًا، وهذه تعد قريبة جدًا من قياسات السيد ماير، التي يمكننا الاعتماد على دقتها. ويبدو من تقرير هذا الرجل أن وجه الهرم هو عبارة عن مثلث متساوي الساقين، تُقَدَّر قاعدته بسبعمائة وثمانية وعشرين قدمًا، وكل جانب من الجانبين بستمائة وثلاث وثمانين؛ وأن الزاوية في القمة هي ست وستون درجة، والارتفاع العمودي

للهرم أربعمائة وخمس أربعون قدمًا؛ وأنه يتكون من مائتين وسبع دورات من الحجارة النحيتة، أكبرها يبلغ ارتفاعه خمسة أقدام تقريبًا، وأقلها فوق القدمين.

رغم أن الأهرامات تجذب العين قسرًا وتلفت الانتباه، إلا أنها ليست الشيء الوحيد هنا الذي يستحق إشعار المسافر المثقف والمحب للاطلاع. ففي جوارها كانت المعابد الفسيحة، التي لا يزال من السهل تتبع آثار أحدها أمام الواجهة الشرقية للهرم الثاني، وأخرى أمام واجهة الهرم الثالث. ويمكن للعديد من غرف الدَّفن كذلك، التي تم نحتها في أجزاء مختلفة من الصخر، وزُخرفت بكثرة بالنقش الغائر، أن تعطي فكرة من خلال وجهات النظر التي قدمناها. بجانب ذلك، يوجد على بُعد حوالي ستمائة خطوة إلى الشرق من الهرم الثاني، أثرًا لافتًا للنظر لتفرده.

أَبُو الـهَـوْل

تم نحت هذا التمثال الضخم من صخرة صلبة. يبلغ طول بدنه — المدفون الآن في الرمال -حوالي مائة قدم، وارتفاع رأسه حاليًا سبعة وعشرون قدمًا. على الرغم من أن الأنف والشفة العلوية قد دمرهما العرب، إلا أن الرأس يتميز بخصائص الشكل الزنجي[١]. والأذنان كبيرتان بشكل ملحوظ، الحافة العليا منها على استقامة واحدة مع منتصف الجبهة. يُغَطَّى الرأس بغطاء يصل إلى ما فوق الحاجبين، ويمتد على جانبي الوجه، مُضَلَّعًا بالكامل. هناك العديد من العروق الأفقية لطبقة أقل صلابة في الصخر، أصابها البِلَى، مما أعطاها مظهرًا فريدًا من الخلف. أما الرقبة فأصابها التآكل بشكل كبير، بحيث فقدت شكلها الأصلي تمامًا.

إن هذا الشكل التخيلي، الذي يُمَثِّل رأس امرأة وقدم أسد وجسم كلب، من المحتمل جدًّا أن يكون قد تم تصميمه كرمز لبعض الأحداث المهمة، وليس بعيدًا أبدًا أن يكون رمزًا لارتفاع النيل، الذي يحدث في شهري يوليو وأغسطس، عندما تمر الشمس عبر برجي الأسد والعذراء. فإذا كان هذا هو المغزى الحقيقي للصورة الشائعة في مصر، رغم أن أبعادها أقل بكثير مما نقوم باستعراضه الآن؛ وتُمَثِّلُ كذلك حقيقة أن أبو الهول يقابله رمزًا مقدسًا أو روحيًّا في هندوستان، كما ذُكر من قبل؛ سيكون هذا بمثابة حجة قوية تثبت أنه قد حدثت في زمان قديم هجرة من مصر إلى هندوستان، بدلاً من أن يكون الهندوس قد سكنوا مصر.

---

(١) ذكر المقريزي أنه كان يُعرف ببِلْهَيْب، وأنه كان هناك شخص في زمانه يُعرف بالشيخ محمد صائم الدهر، من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، قام في نحو من سنة ثمانين وسبعمائة، من باب تغيير المُنْكَر، بتشويه وجه أبي الهول، انظر: المقريزي، **الخطط**، مج. ١: ٣٣١ -٣٣٣ (المترجم).

لكن مهما كان المقصود من الرمزية التي يشير إليها "أبو الهول"، فإن وضع هذا التمثال الهائل وعلاقته بالهرم الثاني ومعبده يشير بوضوح إلى الرابط بينها. ويخبرنا بليني Pliny أنه في وقته كان هناك اتصال ما بين جسم أبو الهول وأحد الأهرامات. وفي الوقت الحاضر يوجد تجويف على قمة الرأس حوالي خمسة أقدام عمقًا؛ ومقدار ما يمكن أن يمتده غير معروف، فكما تَشَكل هذا التجويف قد أُترع بالرمال. وبناءً عليه لدينا سبب بسيط للتساؤل، هل كان أبو الهول مرتبطًا في يوم من الأيام بالمعبد الذي يقف هو أمامه، بممر آخر يصعد من خلاله الكاهن إلى رأسه، حيث يردد من عليها كلامه الحكيم على الجماهير أدناه.

يبدو أن تاريخ هذه الآثار المدهشة يحير كل التوقعات. لقد ذُكرت بوصفها أعمالاً قديمة من قبل أقدم المؤرخين الوثنيين؛ فمن شكل السقف المُحَدَّب للدهليز في الهرم الأكبر، يمكن أن نفترض أنها بُنيت قبل أن يكون فن بناء العِقْد الدائري معروفًا؛ وحيث أنها مجردة تمامًا من الهيروغليفية، التي توجد على الآثار الأخرى في هذا البلد، فمن المحتمل جدًّا أنها أُقيمت قبل أن تكون هذه الرموز المقدسة قد تم ابتكارها، وهي التي تم إهمال استخدامها منذ زمن بعيد للغاية.

المَقابِر

ذكرنا سابقًا مقابر الموتى تحت الأرض، والتي توجد أعداد منها بجوار الهرمين الكبيرين، وتُعَد أثرًا عظيمًا بلا شك، على الرغم من أنه علينا بطبيعة الحال أن نستنتج مِن فن النحت الذي تقدمه، أن صناعة ذلك الزمان كانت تُعَد أكثر تطورًا. فقد تم تنفيذ بعضها بأسلوب متميز بالقياس إلى نوع مماثل من التجاويف الموجودة تحت الأرض في صعيد مصر. وعليه فمن غير المستبعد أن تكون هذه الأشياء قد صُنعت في الوقت الذي كانت فيه ممفيس -التي تقع على بُعْد بضعة أميال جنوبي الأهرام -عاصمة هذه المملكة.

يبدو أنه لا يوجد جزء من مصر قد تم استكشافه بأي قدر من الجهد، إلا وتم العثور فيه على مقابر، رغم اختلافها الكبير في شكلها وصنعتها. فبعضها عبارة فقط عن تجاويف مربعة الشكل حُفرت في الصخر؛ وهناك أخرى عبارة عن غرف، تحتوي على صف واحد أو أكثر من الفتحات في جوانبها لإيواء جثث الموتى؛ وكثيرًا ما يكون هناك العديد من هذه الغرف تتصل مع بعضها البعض. أسقف بعضها تكون مُسَطَّحة، وأخرى مُقَبَّاه، وأخرى ترتفع بقباب على مناطق دائرية. وجدران بعضها بسيط تمامًا، وأخرى مغطاة بهيروغليفية منحوتة، مزينة بنقوش بارزة، أو مزخرفة بإسراف بالطلاء والتذهيب. أحيانًا نقابل فيها تماثيل كبيرة بالحجم الطبيعي في وضع الجلوس، وعلى حجورها لفائف نُقش عليها بالهيروغليفية، أو على الجدران المجاورة. ربما تستعرض هذه التماثيل مرثيات الأشخاص، متضمنة وقائع قصيرة من حياتهم.

لم تكن أماكن الدفن هذه مقصورة على الجثامين البشرية؛ إذ كان يتم تحنيط طائر أبو منجل Ibis بحرص ديني، ومن ثم يوضع في جرة فخارية، تودع في مدفن تحت الأرض.

وهناك دهاليز من هذا النوع تمتد لأربعين أو خمسين قدمًا تحت سطح الأرض، في جوانبها توجد عدة غرف مليئة بأوعية فخارية، تحتوي كل منها على أبي منجل محنط وملفوف بالكتان. وقد قَدَّس المصريون حيوانات أخرى وقاموا بتحنيطها ودفنها بنفس الطريقة.

في بعض هذه التجاويف الموجودة تحت الأرض، وكذلك في الأهرامات، عُثر على توابيت؛ موجود أحدها في القاهرة، صُنع من البازلت، وهو مثير للشغف جدًّا، وله رَسْمٌ مُوَضَّحٌ هنا (لوحة ٩، ٢٨). يَظهر بجلاء من الهيروغليفية الموجودة عليه أن صناعته ترجع لمصر القديمة، مع أنه زُخْرِف بأشكال حلزونية تُعَد ابتكارًا يونانيًّا. هو الآن بمثابة حوض مياه، يُطلَق عليه ينبوع العُشَّاق، لوجود قناعة شعبية راسخة بأن ماءه يُخمد آلام الحب.[١] لا يجب علينا أن نتجاهل ذكر التوابيت الحجرية التي وُضعت فيها المومياوات؛ في بعض الأحيان عليها صورة إنسان منحوتة في الوضعية التي عادة ما ينام فيها الشخص، على الغطاء الذي ينحدر إلى جانب واحد.

(١) يقصد ما يسمى بـ"الحوض المرصود"؛ وكان يقع أمام جامع الجاولي، ويقول علي مبارك أن شارع قلعة الكبش كان يُعرف بالحوض المرصود، وهو حوض من الحجر الصوان الأسود في فجوة على قدره من الكبش، وكان مُعَدًّا للسقي، فلما دخلت الفرنساوية ديار مصر واستولوا عليها أخرجوه من موضعه وأرسلوه إلى باريز مع غيره من التحف التي أخذوها لكنها لم تصل بل استحوذ عليها الإنجليز وأخذوها إلى بلادهم؛ ويقول إدوارد لين أن جورج الثالث قام بنقل هذا التابوت من مصطبة فرعون وأهداه للمتحف البريطاني عام ١٨٠٢م، وأن د. بادج Budge قال أنه تابوت خنسو –نف ابن السيدة حتب– آمن من الأسرة السادسة والعشرين حوالي عام ٥٥٠ ق.م، انظر: جومار، **وصف مدينة القاهرة**: ٣٠٧ -٣٠٨؛ علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، مج. ٢: ١٢٠؛ لين، **القاهرة منتصف القرن التاسع عشر**: ٢٣٣ (المترجم).

تقع مقابر الإسكندرية - والتي وضعنا لها صورة هنا (لوحة ١٠) - في جنوب الميناء القديم، مدخلها الحالي عبارة عن فتحة صغيرة غير منتظمة الشكل، على بعد خطوات قليلة من حافة الحوض الذي تتصل به. هذه الفتحة ضيقة للغاية، لدرجة أنك مضطر لأن تنسل بالقدمين أولاً، وبعد تجاوزها، تجد نفسك في حجرة ذات حجم متوسط، لكنها مليئة بالثرى، بحيث يمكن للرجل بالكاد أن يقف فيها منتصبًا. كل جانب من الجوانب الثلاثة لهذه القاعة لها ثلاثة أخرى تقتطع منها فقط مساحة قدرها ثمانية أقدام مربعة، وفي الثلاثة جوانب الخاصة بكل جانب يوجد تجاويف جدارية مربعة، واجهاتها مزينة بنوع من الدعامات التوسكانية Tuscan Pilasters، تحمل قَوْس عِقْد segment of an arch. يمكنك عبر الغرفة الأولى أن تمر إلى غُرف أخرى مختلفة؛ إحداها متوازية الأضلاع، بعرض خمسة عشر قدمًا تقريبًا، وسقفها على هيئة قوس شديد الانفراج؛ وعند طرفها يوجد دعامتان توسكانيتان، يحملان عتبًا، وإفريزًا، وحلية هرمية الشكل Pediment[١]، ما يشكل بابًا كبيرًا، على كل جانب من جانبيه يوجد باب صغير مزخرف بنفس الطريقة، لكن دون حلية هرمية. هذه الأبواب الثلاثة تقود إلى حجرة دائرية لها نفس العرض، سقفها عبارة عن قبة شديدة الضحالة ترتكز على عتب. ومن هذه الغرفة تدخل ثلاثة غرف مربعة أصغر حجمًا، بكل غرفة ثلاثة تجاويف جدارية، تمامًا كما في الغرفة الأولى. اقتُطِعَت كل هذه الحُجُرات من الصخور الصلبة، وعُملت بعناية فائقة وجُصِّصَت. وكان بعضها يحتوي على فتحة مربعة في السقف لدخول الضوء، لكنها الآن مسدودة. كلها جافة للغاية، ومتماثلة

(١) مصلح "Pediment" أو هرمي، هو جزء مثلث في أعلى واجهة مبنى أو حلية معمارية مثلثة أو هرمية الشكل فوق باب أو نافذة، انظر: سناء الدغار، قاموس الدغار الأثري (القاهرة: مطبعة أنشودة، د.ت): ٢٠٩ (المترجم).

في النمط؛ ولكن إلى أي مدى تمتد، من المستحيل معرفة ذلك؛ فهي الآن مغلقة تمامًا، ومدخلها الأصلي غير معروف كذلك.

إذا كان بإمكاننا أن نحكم على قِدَم هذه من زخارفها المعمارية، فعلى الأقل نستطيع بنفس الدرجة اكتشاف إمكانية رجوعها إلى الفترة التي كانت فيها الفنون قد تجاوزت أوجها. على سبيل المثال، يوجد على الباب الكبير الداخلي في الغرفة الدائرية المذكورة أعلاه، إفريزًا أفقيًّا زُخرف بشكل مُسَنَّن Dentils[١] فقط دون حِليات Modillions[٢]، في حين أن الإفريز المائل للحِلية الهرمية يحتوي على حِلية غير مُسَنَّنَة. لا يوجد مثيل لهذا في أعمال القدماء، حينما كانت الفنون في قمة أوجها؛ لكننا لا نندهش من وجود ذلك لمَّا بدأت في التراجع، فمنذ ذاك الوقت بدأ حدوث شتى أنواع العبث، وأدى إهمال البساطة القديمة إلى هذا الخلط الذي انتهى إلى انهيارها.

هكذا كان موت الفن الإغريقي في نفس البلد الذي كان مهدًا له. فبالرغم من الأوهام البارعة التي لجأ إليها البعض من أجل نسبة ابتكار الطُّرز المختلفة إلى اليونانيين، فإنه من الصعب الشك في أن اليونان اقتبست فنها المعماري من البلد الذي كان آهلاً بهذا القدر الكبير. فبالنسبة لنقاء الذوق، صحيح أن اليوناني قد ذهب أبعد مما وصل إليه سلفه الإفريقي؛ لكن نماذج معابده والأجزاء الرئيسية من صروحه، وأساسيات جميع أنماطه، والزخارف التي تُزينها، موجودة كلها في مصر؛ فهو لم يقم سوى بالوصول بها لدرجة من الكمال لم تصل إليها ابدًا في بلدها الأصلي.

---

(١)عدد من الأشكال المستطيلة المتجاورة التي تشبه الأسنان تُستخدم كوحدات زخرفية تحت الإفريز، انظر شكل (١٠) (المترجم).

(٢) "موديليون Modillions" مصطلح يُطلق على الرف الناتئ تحت تاج الإفريز في الطراز الكورنثي Corinthian اليوناني وغيره (المترجم).

المِسَلاّت

من بين الآثار المصرية القديمة المعاصرة لاستخدام الهيروغليفية، تُعَد المسلة من الأشياء اللافتة للنظر. تم تصميم أصابع الشمس هذه، كما أَطلق عليها الكهنة المصريون، للزينة والمنفعة على حد سواء. لقد كانت بمثابة عقارب ساعات شمسية ضخمة، قُطعت في الأرضية التي انتصبت عليها، ومن ذلك استمدت تسميتها. وقد وُضعت كزينة أمام المعابد، وغُطت وجوهها بالهيروغليفية، التي ربما تُسَجِّل الملاحظات الفلكية والأحداث التاريخية، وتغرس المبادئ الأخلاقية. لم ير السيد بروس في هذه، فضلاً عن غيرها من الهيروغليفية، شيئًا غير التقويم. وهي تختلف عن التقويمات الخشبية، التي نقلها الريفيون لدينا عن أسلافهم الشماليين، فقط في كونها زاخرة أكثر؛ لأنها تحتوي على الكثير من العلوم الفلكية الحقيقية، مع الكثير من تلك الترهات الفلكية التي لا تخلو منها بعض تقاويمنا حتى يومنا هذا.

قد يكون هذا موضوعًا لكثير من النقوش الهيروغليفية، وسط أشخاص درسوا علم الفلك كثيرًا، فضلاً عن المهتمين بتحديد فترات معينة من السنة؛ لكن من الصعب افتراض أنها تقتصر على هذا عندما ننظر إلى كثرتها على جدران المعابد والمسلات، وقواعد التماثيل ودعائمها، وفي مقابر الموتى[1]. ومن المؤكد أنه لا يمكن أبدًا أن يكون الغرض أن يصير

(١) يجب الوضع في الاعتبار أن حل رموز النقوش الهيروغليفية على يد شامبليون العالم الفرنسي كان لاحقا لتأليف هذا الكتاب بأكثر من عقدين، انظر: روبير سوليه، **مصر ولع فرنسي**، ترجمة لطيف فرج (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢م): ٨١ وما يليها (المترجم).

صمت هذه مربكًا، لمعرفة متى يكون القمر مكتملاً، أو حتى متى يظهر نجم الشِّعْرى من أشعة الشمس. أحد الافتراضات التي قدمها السيد بروس نفسه كافية لإنكار هذه الفرضية. لقد تم إرشاد موسى - كما يلاحظ - لكتابة الناموس بحروف أبجدية، وليس بالهيروغليفية؛ ولكن إذا كانت هذه مخصصة فقط للملاحظات الفلكية، ولم تُستخدم لأي غرض آخر، يكون من غير المعقول مَنْعه من استخدامها في تسجيل الناموس.

من الواضح أنه أيًّا كان مغزاها بوجه عام أو محدد، فإن الكثير منها كان معدًّا كي يبقى لأجيال بعيدة. فقد كانوا يقومون بالقطع العميق في أشد الأحجار صلابة، وكأنهم يتحدون الزمن. ولكن على الرغم من أنها لا تزال باقية، وربما لن يُطمس الكثير منها طالما بقي هذا العالم، فقد تم بالفعل نسيان مدلولها منذ زمن بعيد؛ في حين أن الكتابات الكلاسيكية لليونان والرومان، والتي أودعت أكثر المواد هشاشة، قدمت عطاءًا قُدِّر له البقاء، وهو ما طمح إليه المصريون لكن دون جدوى.

تلك المسلة الواقعة بالقرب من الإسكندرية، والتي تسمى مسلة كليوباترا[1] هي كتلة من الجرانيت، لا يصل قطرها إلى ستة أقدام عند القاعدة، ويبلغ ارتفاعها الأصلي سبعين قدمًا؛ لكن ركيزتها، وجزء من قاعدتها، مدفون في الرمال. انظر اللوحة (١١). الجانبان اللذان يقابلان الشمال الغربي والجنوب الغربي محفوظان بشكل جيد، في حين تم تشويه

(١) كانت هذه المسلة إحدى مسلتين أقامهما الفرعون تحتمس الثالث (١٤٧٩ -١٤٢٥ ق.م) في أون أو هليوبوليس، ثم نقلتا لاحقًا إبان الحُكم الإغريقي من مكانها الأصلي إلى الإسكندرية أمام معبد السيزاريون أو سيزاريوم التي أقامته ملكة مصر البطلمية كليوباترا (٥١ -٣٠ ق.م) في موقع يطل على الميناء الشرقي بالقرب من ميدان محطة الرمل الحالي، ومن هنا نسبتا خطأً إلى هذه الملكة؛ وقد مُنحت هذه المسلة كهدية إلى الولايات المتحدة مِن قِبَل الخديوي توفيق عام ١٨٧٩م، فنُقلت إلى نيويورك وتم وضعها هناك في حديقة السنترال بارك كما هي حتى الآن؛ والأخرى نُقلت إلى لندن عام ١٨٧٧م، لتُنصب على شاطئ التايمز، انظر شكل (١١) (المترجم).

الهيروغليفية الموجودة على الجانبين الآخرين بشكل كبير، خاصة باتجاه الجزء السفلي، حيث التدرجات الكبيرة ساقطة من الحجر، على الرغم من صلابتها.

هناك مسلة أخرى جميلة قائمة وسط أنقاض ما كان يومًا مدينة هليوبوليس Heliopolis[1]. وتتكون هذه -التي يورد لها رسم هنا كذلك -من قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر، منقوشة بالهيروغليفية، ليست مشوهة مثل المسلة التي سبق ذكرها، والتي تختلف عنها قليلاً في الحجم.

(١) ولازالت قائمة حتى الآن في حي المطرية شمال شرقي القاهرة، منذ أن أقامها الملك سنوسرت الأول (١٩٧١ -١٩٢٦ ق.م) بالعاصمة القديمة "أون" التي أطلق عليها الإغريق هليوبوليس، انظر شكل (١٢) (المترجم).

عَمُود بُومْبَي

كما يُعرف عادة، هو أثر قديم آخر يلفت انتباه المسافرين كثيرًا، على الرغم من أنه أحدث بكثير من المسلات. وقد تم قياسه بدقة أثناء احتلال الفرنسيين لمصر، وفيما يلي أبعاده كما قدمها السيد نوري Mr. Norry في تقريره إلى المعهد.

ارتفاع الركيزة بالمتر 24 ,3، مما يساوي 132’9 ,6 ,10 بالقدم، تبعًا للقياس الإنجليزي.

	المتر	القدم
القاعدة	**١,٧٥**	**٥,٩,٧٢٤١**
البدن	**٢٠,٤٨**	**٧٦,٢,٢,١٧٦**
التاج	**٣,٢١**	**١٠,٥,٧,٣٨٣**
المجمل	**٢٨,٧١**	**٩٤,٠,٥,٩٣٢**

السيد نوري كذلك أورد في تقريره أن قُطْر العمود:

في الجزء السفلي	**٢,٧٠**	**٨,٩٠٧,٦١٣**
بالقرب من طوق العمود	**٢,٤٩٨**	**٨,١,٥,٣٦٣**

يتكون البدن والجزء العلوي من قاعدة هذا العمود من كتلة واحدة من الجرانيت الأحمر. أما التاج، فهو من حجر مختلف، على الطراز الكورنثي Corinthian، بأوراق نخيل غير مسننة؛ يَعتقد السيد بروس أنها صُممت فقط لحمل زخارف معدنية أفضل صنعة، تكون أقل عرضة للتضرر، تظهر منها العديد من الأمثلة في بعلبك وتدمر.

يتكون أساس هذا العمود من مستويين من الحجارة. وقد سعى أحد العرب إلى نسفه ليستولي على الكنوز التي اعْتَقَدَ أنها دُفنت تحته؛ لكن أُجهضت خطته. لقد قام لكشف كنزه باقتلاع عدد قليل من الحجارة من جانب واحد، وبالتالي أظهر كتلة من الرخام الأبيض، مغطاة بالنقوش الهيروغليفية في وضع مقلوب، مما يدل على أنها كانت جزءًا من بعض الآثار المصرية القديمة. فوق هذه الكتلة، يستند مركز العمود، كما المحور. وهناك من بين أحجار الأساس قطعة أخرى من الرخام ذات لون أصفر مرقط باللون الأحمر، عليها كذلك كتابة هيروغليفية، لكنها تضررت كثيرًا، وقطعة من عمود صغير، وبعض قطع الرخام الأخرى التي لا يوجد بها شيء لافت للنظر.

بعض البحارة الإنجليز الذين قرروا أن يشربوا فوقه الخمر على سبيل المرح، وجدوا هناك تجويفًا، ما أعطى أولاً سببًا لافتراض أن هناك تمثالًا قد نُصب عليه. ويخبرنا السيد نوري، أنه تجويف دائري يبلغ قطره ستة أقدام ونصف، وعمقه حوالي بوصتين ونصف، يُعتقد أنه كان يحوي قاعدة تمثال.

بَذل العلماء الكثير من الجهد في مساعي عقيمة للتأكد من الزمن الذي بني فيه والغرض الذي أُعد من أجله[1]. يميل الكثيرون إلى افتراض أنه

(١) ترجع نسبة هذا العمود خطأً للقائد الروماني بومبي (١٠٦ -٤٨ ق.م)، لحقبة الحروب الصليبية، ذلك القائد الذي هرب من يوليوس قيصر وقُتل في مصر، فظن الأوروبيون أن رأسه وُضعت في جرة فوق هذا العمود؛ والمرجح أن هذا العمود أُقيم كنصب تذكاري للإمبراطور الروماني دقلديانوس (٢٨٤ -٣٠٥م) في القرن الثالث الميلادي؛ وقد أطلق عليه العرب "عمود السَّواري"؛ وذكر المقريزي أن حوله كان يوجد أربعمائة عمود، كسرها قراجا والي الإسكندرية في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ورماها بشاطئ البحر ليُوَعِّر على العدو سلوكه إذا قدموا؛ ويظهر في شكل (١٣) العمود خلفه الأسوار الجنوبية للإسكندرية التي ينتصب خارجها على تلة سِدْرَة، انظر: المقريزي، **الخطط**، مج. ١: ٤٣٢ (المترجم).

أقيم على شرف سيفيروس Severus الذي زار مدينة الإسكندرية، ومنحها مساعدات مختلفة. وقد روى أبو الفداء، أنه منحها كذلك اسم عموده؛ لكن البروفيسور الضليع وايت White قد أظهر في الآونة الأخيرة، أن الفقرة الموجودة عند أبي الفداء قد أُخطئ في ترجمتها؛ ومع وجود احتمال كبير في نسبة إقامته إلى بطليموس فيلادلفوس Ptolemy Philadelphus الذي عمل أساسًا في عهده على تجميل الإسكندرية، يتصور أن التمثال الذي كان عليه هو لبطليموس سوتير Ptolemy Soter، ويُعتقد أنه قد وُضع أمام معبد سيرابيس.

من التجويف الدائري الذي اكتشفه البحارة الإنجليز، لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك بأنه كان هناك تمثال مُعَد لوضعه أعلى العمود؛ ولكن قد يكون الاستفسار عما إذا كان قد نُصب تمثال هناك مِن قَبل؟ إذا حدث ذلك، فإنه لا يمكن إزالته بسهولة؛ هذا فضلاً عن أننا لا نجد أي ذكر لتمثال قائم بالفعل على القمة لدى أي كاتب عربي أو غيره. من ملاحظة السيد بروس التي تتعلق بالزخارف الورقية للتاج، ربما يكون من المحتمل أكثر أن العمود لم ينته عند وفاة بطليموس فيلادلفوس، وأن ابنه يورجيتس Euergeters الذي كانت حياته سلسلة من الحروب والفتوحات منذ صعوده للعرش، أهمل إكمال التصميم؛ أما بقية سلالة البطالمة، ومعظمهم من الطغاة، لم يهتموا كثيرًا بذكرى سلفهم؛ بحيث لم توضع أي من الزخارف المعدنية أو تمثال بطليموس سوتير على العمود.

هناك بعض بقايا الآثار القديمة الموجودة جوار الإسكندرية، وضعنا لها صورًا هنا.

حَمَّام كليوباترا

كما يُطلق عليه بين العامة؛ وهو حوض كبير، يقع إلى الغرب قليلاً من الميناء القديم، يوجد على جانب واحد منه ثلاث غُرف مربعة صغيرة، نُحتت في الصخور الصلبة. عَبْر هذه الغُرف يوجد مقاعد حجرية، وقناة صُنعت متعرجة من أجل إعاقة الرمال، ونَقْل مياه البحر إليه نقية شفافة مثل الكريستال. ترتفع المياه أعلى بقليل من خِصر الشخص الذي يجلس على المقعد، بينما ترتكز قدماه على رمال ناعمة. ويسمع صوت الأمواج المتكسرة على الصخور، والزَّبَد داخل القناة: تدخل الموجة فترفعه ثم يذهب جفاءً. ويجلب التناوب بين الدخول والانسحاب، إمدادًا جديدًا مستمرًا من الماء، مع برودة تكون في الواقع لطيفة في مناخ شديد الحرارة. وتوضح بعض البقايا، أن هذا الحمام لم يكن فيما مضى مُجَرَّدًا من الزخرفة. (لوحة ١٤).

من المفترض أن تُشَكِّل أعمدة الجرانيت، التي تَظهر في لوحة أخرى (١٥)، جزءًا من الأروقة الواسعة لساحة الألعاب الرياضية Gymnasium بالقرب من البوابة الكانوبية.

الإسْكِنْدَرِيَّة

بعد أن أشرت للتو إلى بقايا آثارها الرئيسية، سنشرع الآن في تقديم بعض المعلومات عن الإسكندرية نفسها، تلك المدينة ذات الأخبار المتنوعة الجديرة بالذكر.

أسسها الإسكندر، الذي عرف كيف يؤقلم موضعها مع تجارة واسعة النطاق؛ فالأفق الواسع لهذا العاهل الشهير لم يَحْصُر رؤيته في الأرض، كونه يدرك تمامًا كيف يساعد الاتصال البحري بين الأجزاء النائية على تحقيق هدفه الكبير، وهو توحيد جميع الشعوب تحت زعيم واحد، وتأكيد اتحادهم من خلال استيعاب أعرافهم. كان دينوقراطيس Dinocrates الشهير، الذي اكتسب سمعة كبيرة من خلال إعادة بناء معبد ديانا Diana في أفسوس Ephesus، قد استخدمه الإسكندر في بناء هذه المدينة. ويقطع الإسكندرية شارع واحد ذي عرض كبير في خط مستقيم من الشمال إلى الجنوب، والذي بدوره يقطعه شارع آخر مماثل له في الاتساع من الشرق إلى الغرب. زُينت المدينة بالمنازل الرائعة، والمعابد، والمباني العامة، مُظْهِرَة وفرة في الرخام والحجر السُّمَّاقي Porphyry أُعَّدت في فترة مقبلة لتجميل عاصمتي الإمبراطورية الرومانية. وبالتوازي مع هذين الشارعين، تجري شوارع أخرى أصغر، غير أنها غير محصورة، تترك الرياح تمر بحرية، خاصة من الشمال، ذلك الاتجاه الوحيد الذي ينقل البرودة والحيوية إلى مصر. وامتد لسان بطول ميل تقريبًا، من البر الرئيسي إلى جزيرة فاروس Pharos المقابلة للمدينة، قسّم الميناء إلى قسمين. على هذه الجزيرة أقيمت المنارة الشهيرة، التي بدأ في إنشائها بطليموس سوتير، وانتهت في عهد ابنه بطليموس فيلادلفوس. كانت عبارة عن برج مربع، به فانوس من الأعلى، يمكن رؤية ضوئه من عدة فراسخ. وقد تكلفت المنارة

ثمانمائة طالين Talents، وزينتها أعمدة ودرابزينات وشرفات من أجود أنواع الرخام، صُنعت بشكل رائع[١]. أما المهندس المعماري فكان سوستراتوس من كنيدوس Sostratus of Cnidos. وفي المرفأ الكبير كانت تقع جزيرة أنترودوس Antirhodes، حيث المسرح الكبير والمقر الملكي. وفي الجزء الشرقي من المدينة كان هناك ساحة للألعاب الرياضية، ذات أروقة يزيد طولها على ستمائة قدم، تدعمها عدة صفوف من الأعمدة الرخامية، كانت بدون البوابة الكانوبية عبارة عن ميدان واسع لسباق عربات الخيل؛ وامتدت وراء ذلك ضاحية نيقوبوليس Nicopolis على طول الشاطئ، مُشَكِّلَة تقريبًا مدينة ثانية[٢]، حيث كان يوجد مدرج رائع مع ساحة سباق من أجل المهرجانات التي تقام كل خمس سنوات ويطلق عليها Quinquennalia.

احتل القصر جزءًا كبيرًا من المدينة، وداخل باحاته كان يوجد المتحف، وأماكن إقامة لرجال العِلم، حيث تم تسجيل أربعة عشر ألف عالِم في وقت واحد وما يُنفَق عليهم من حساب الدولة؛ ومعبد وُضع فيه

---

(١) ظلت منارة الإسكندرية قائمة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى سقوطها في القرن الرابع عشر الميلادي، وكان الرحالة ابن بطوطة قد رآها قبل أن يستولي عليها الخراب لدى زيارته للإسكندرية في جمادى الأولى ٧٢٦هـ/ أبريل ١٣٢٦م، وذكرها في رحلته قبل سقوطها النهائي عام ١٣٤٨م؛ وقد قام السلطان المملوكي قايتباي عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م بإقامة القلعة أو الحصن القائم حاليًا باسمه مكان المنارة القديمة، انظر: محمد بن عبد الله اللواتي، المعروف بابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (القاهرة، ١٩٦٦م): ٢٢؛ حسن قاسم، **المزارات الإسلامية**، مج. ١: ٥٠ -٥٨ (المترجم).

(٢) قال عنها استرابون أنها كانت على فرع كانوب الموصل للإسكندرية، وكان بها دور كثيرة للملاهي والدعارة؛ وقد أنشئت في عهد الإمبراطور الروماني أغسطس، وتعني "مدينة النصر"، ومكانها الحالي في منطقة بولكلي بين مصطفى كامل وجليم، انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤م)، ق. ١ : ٤٦٦ (المترجم).

جثمان الإسكندر في تابوت ذهبي، تم انتهاكه من قبل سلوقس سبيوفاكتس Seleucus Cibyofactes سيء السمعة، والذي سَوَّل له جشعه إزالة نعش الذهب، واستبداله بآخر من الزجاج.

في ضاحية راقوده Rhacotis كان هناك معبد يُدعى سيرابيوم Serapeum، بني من أجل سيرابيس، الذي جُلب صنمه من بونتس Pontus إلى الإسكندرية في عهد بطليموس سوتير. تفوق هذا البناء - وفقًا لأميانوس مارسلينيوس Ammianus Marcellinus - في الجمال والروعة على أي بناء آخر في العالم، باستثناء الكابيتول Capitol في روما. وعندما امتلأ المتحف في القصر بالكتب، ووصل إلى أربعمائة ألف مجلد، تم بناء مكتبة إضافية متاخمة لهذا المعبد، احتوت في النهاية على ثلاثمائة ألف أخرى. أُحرقت المكتبة الموجودة في القصر أثناء الحرب التي شنها يوليوس قيصر Julius Caesar على المصريين؛ لكن بعد أن أضافت كليوباترا مائتي ألف مجلد من المكتبة البرجيمية Pergamean Library، التي أعطيت لها من قِبَل مارك أنطونيو Mark Antony، إلى المكتبة الموجودة في السيرابيوم، وغيرها من الكتب التي أضيفت لمخزونها من وقت لآخر، أصبحت لوحدها في النهاية غنية بالكتب أكثر مما كانت عليه المكتبتان في السابق. كثيرًا ما كان يتم نهبها خلال اضطرابات الإمبراطورية الرومانية، وكثيرًا ما تم تزويدها بكتب جديدة، حتى أدى في النهاية الاجتهاد المعروف للخليفة عُمَر إلى إحراقها. فقد قال لقائده عَمْرو الذي استولى على الإسكندرية: "إذا كانت الكتب لا تحتوي إلا على ما هو موجود في القرآن، فهي عديمة الفائدة؛ وإذا كانت تحتوي على أي شيء يتعارض معه، فلا يجب أن تبقى: لذا يجب التخلص منها". ونتيجة لهذا الأمر، تم توزيعها بين حُرَّاس الحمامات العامة، حيث كان هناك ما يزيد

عن الألف، وتم توفير كمية كافية من الوقود لإحراقها خلال فترة ستة أشهر(١).

بما أن الإسكندرية كانت معوزة للمياه العذبة، فقد تم إنشاء صهاريج كثيرة تحت المدينة، لاختزان المياه التي جُلبت من النيل عن طريق قناة كبيرة. كانت هذه الخزانات مَعْقُودَة بالآجر، ومطلية بملاط لا يَنْفُذ من خلاله الماء، من نفس النوع الذي يُشاهَد في الحمامات والخزانات القديمة في روما وأماكن أخرى. الجزء الأكبر من هذه الصهاريج سُدَّ الآن؛ غير عدد قليل فقط هو ما تبقى، يكفي لتوفير احتياجات سكان المدينة الحالية.

وإلى جانب تزويد المدينة بالمياه، شكلت هذه القناة اتصالاً آمنًا وسريعًا مع الفرع الكانوبي للنيل، والذي تم من خلاله تفادي المرور الملتف، الذي كثيرًا ما يكون خطيرًا عن طريق مصب النهر. غير أنها لم تكن قابلة للملاحة لعصور، حتى قام بونابرت عندما كان في مصر بتطهيرها إلى حد ما، وهو ما مكنه أثناء الفيضان من إرسال المؤمن خلالها من القاهرة إلى الإسكندرية، ونقل كمية كبيرة من المدفعية من الإسكندرية إلى الجيزة.

---

(١) رواية ليس لها أي سند؛ يقول المؤرخ الإنجليزي ستانلي لين بول: "أما عن قصة تدمير مكتبة الإسكندرية وتوزيع الكتب لإشعال النيران في أربعة آلاف حمام عام، لم يتم العثور عليها في أي من المصادر المبكرة، فضلاً عن أنها ليست مذكورة من قِبل أي كاتب يوناني، ولم يذكرها كذلك يوحنا النقيوسي أو ابن عبد الحكم أو الطبري، فهي تظهر لأول مرة في القرن الثالث عشر، أي بعد ستمائة عام من الحدث = المزعوم، في أعمال عبد اللطيف وأبي الفرج، وهي بلا ريب متناقضة مع رواية يوحنا النقيوسي عن سياسة الحماية التي انتهجها عمرو، ولربما كان أصل القصة راجعًا إلى تدمير كتب عابدي النار خلال الفتح العربي لأرض فارس"، وقد اتفق مع هذا الكلام كذلك الإنجليزي ألفرد بتلر، انظر: ستانلي لين بول، **تاريخ مصر في العصور الوسطى**، ترجمة وتحقيق وتعليق أحمد سالم سالم (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٤م): ٥٧؛ ألفرد بتلر، **فتح العرب لمصر**، ترجمة محمد فريد أبو حديد (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م): ٣٤٨ -٣٧٠ (المترجم).

خلال عصر البطالمة، على مدى ما يقرب من ثلاثمائة عام، استمر ازدهار الإسكندرية؛ فبتدمير مُؤَسِّسِها لمدينة صُور، صارت تجارة العالم كله بيدها. وبينما كانت تمتلك هذا المصدر الذي لا ينضب من الثروة، كان بإمكانها إنشاء مثل هذه المؤسسات لتعزيز العِلم، والتي لم تتواجد من قبل في أي مكان آخر، حتى أثينا نفسها غير مستثناة. وفي النهاية بدأت سلالة البطالمة -التي حكم منها ثمانية أفراد لمدة مائتين وسبعين سنة - في التراجع، ووضعت روما يدها على مصر. أما الإسكندرية، التي كان لديها في ذلك الوقت تقريبًا ثلاثمائة ألف مواطن على قوائمها، سرعان ما سقطت في الانحطاط بعد فترة وجيزة، وشهدت تقلبات مختلفة. مع ذلك ظلت متمتعة بمزاياها التجارية حتى منتصف القرن السادس تقريبًا، عندما استولى عليها عمرو بن العاص، قائد عُمَر. و يمكن أن نكون فكرة عن سكانها في هذه الفترة مما قاله عمرو، فوفقًا لما ذكره، كانت تحتوي آنذاك على أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، واثني عشر ألف تاجر، واثنى عشر ألف بستان، وأربعين ألف يهودي يدفعون الجزية، وأربعمائة مُهَرِّج. لكن مع الضرر الذي سببه كل من العرب والفاطميون والأكراد والمماليك والأتراك لمصر، بتعاقبهم على حكمها، لم تسترجع الإسكندرية مرة أخرى عظمتها القديمة؛ على الرغم من أنها كانت بمنأى عن التخريب، حتى في أيدي أكثر الدول بربرية، نظرًا للمنفعة التي كانت تدرها تجارة الهند الشرقية على حكام مصر، أيًّا كانوا، حتى تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، فلحقها الخراب.

منذ ذلك الوقت تضاءلت إلى لا شيء تقريبًا تحت سلطة الاستبداد التركي الجامدة[1]. قُدِّرَ عدد سكانها المختلطين من أمم شتى في الآونة

(١) يقول المؤلف ما ردده كثير من المستشرقين فوقر بعد ذلك كحقيقة مؤكدة، بأن الإسكندرية لم تشهد أي تقدم يُذكر بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أواخر القرن الخامس عشر، إلى أن =

الأخيرة بعدد لا يتجاوز أربعة عشر أو خمسة عشر ألفًا؛ رغم ما يقال أنها قد زَوَّدَت الباب العالي بأربعة آلاف من الرجال والجنود والبحارة في الحرب الروسية الأخيرة؛ وبدلاً من تلك المدينة الفخمة الواسعة، التي لا يوجد فيها الآن حتى بقايا كافية لاقتفاء أثرها بدقة، لا نجد بها سوى منازل بائسة ومساجد لا قيمة لها، تحتل برزخًا صغيرًا بين الميناءين.

كانت أسوار هذه المدينة مؤشرًا على تدهورها التدريجي. أقيمت هذه الأسوار على يد أحد خلفاء صلاح الدين الذي كان قد أخذ مصر من أيدي الخلفاء الفاطميين في بداية القرن الثالث عشر. وتتكون من قطع الرخام والأعمدة المكسورة، وحطام المدينة القديمة، مختلطة بالحجارة المنتشرة. وهي ذات سماكة كبيرة، ومحصنة بمائة برج. تحيط هذه الأسوار بدائرة

= أثبتت الدراسات الحديثة عكس ذلك؛ فقد شهت تلك المدينة بالفعل انتعاشًا كبيرًا بعد انتهاء الحكم المملوكي لمصر عام ١٥١٧م، والذي وصلت المدينة مع نهايته إلى أسوأ حالاتها؛ فقد أشار أندريه ريمون – على سبيل المثال – إلى أن دمج البلدان العربية مع باقي الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية في أوروبا وآسيا قد أدى إلى تنمية التجارة الداخلية بشكل كبير، وقد أدى هذا السوق الداخلي الضخم إلى حدوث نشاط ورفاهية تجارية كبيرة خاصة في الحواضر العربية، وقد انتفعت مدن مثل القاهرة والإسكندرية انتفاعًا هائلاً من كونها أصبحت ملتقى طرق تجارية هامة في العصر العثماني، هذا غير الاتفاقات التجارية الدولية التي عقدتها الدولة مع مختلف قوى التجارة الدولية مثل الجمهوريات الإيطالية وفرنسا، وتثبت الوثائق أن النشاط الاقتصادي ما لبث في العودة تدريجيًا إلى أسواق وموانئ شرق المتوسط، حتى إذا حل منتصف القرن السادس عشر ظهرت مؤشرات تعافي الاسواق والموانئ المصرية والشامية، بعد أن عادت إليها عمليات التبادل التجاري الضخمة بينها وبين الموانئ الأوروبية؛ ولم تشهد التدهور الكبير الذي تحدث عنه المؤلف إلا في القرن الثامن عشر حين ضعفت السلطة المركزية للدولة وعاث المماليك في مصر فسادًا، انظر على سبيل المثال: أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة لطيف فرج (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩١م)؛ نللي حنا، **مصر العثمانية والتحولات العالمية** ١٥٠٠ -١٨٠٠، ترجمة مجدي جرجس (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م)؛ أحمد سالم سالم، "**الإسكندرية وحركة التجارة العالمية في مطلع العصر الحديث**"، مجلة ذاكرة مصر، العدد الرابع والثلاثون (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، يوليو ٢٠١٨م) : ٧٢ -٨٣ (المترجم).

من خمسة أميال فقط، مما يدل على مدى الانكماش الذي آلت إليه المدينة في تلك الفترة؛ وحتى في هذه المساحة، أصبح الآن جزءًا كبيرًا من الأرض قفرًا، تشغله أكوام من النفايات، وأجزاء متفرقة من الصروح المدمرة.

هذه في الوقت الحالي هي الإسكندرية التي أسسها تلميذ أرسطو العظيم، لتسمو إلى عظمة غير عادية في أول عهد البطالمة، كمقر للتعلم، ومركز لتجارة العالم، حيث سُحر قيصر بمفاتن وحِيل كليوباترا، غارقًا في ذلك الفيض من الترف، الذي قهر أنطونيو بعد ذلك، تاركًا أغسطس الزاهد يستمتع بإمبراطورية روما منقطعة النظير.

لكن الإسكندرية تستحق أن نلقي نظرة على رواية أخرى. يقول هيردر Herder: "إذا كانت القدس هي مهد المسيحية، فإن الإسكندرية كانت هي مدرستها. في هذا المحيط من العِلم والفلسفة، حيث تم جمع أمم كافة البشر والعصور معًا، تم إلقاء بذرة المسيحية، وجذبت إليها كل ما يفترض أنها قادرة على استيعابه. ومنذ ذلك الوقت تَوَلَّد الفساد الأخلاقي بكافة أنواعه، وقُوِّضَت بساطة المذاهب المسيحية. ومع ذلك، فمن المؤكد أن البطارقة الأوائل للكنيسة التي تشكلت في الإسكندرية، لم يكونوا من الأسوأ. لقد فعل أوريجانوس Origen بمفرده للمسيحية أكثر من عشرة آلاف من الأساقفة والبطارقة؛ فمنذ ذلك الحين -عدا ما يخص الاجتهاد النقدي العلمي، الذي استخدمه في أرشيف المسيحية -اقتربت هذه من الغرق بين الأساطير غير الكلاسيكية. وقد انتقلت روحه إلى بعض طلبته أيضًا؛ وكثير من بطارقة مدرسة الإسكندرية فكروا وناقشوا على الأقل بمزيد من البراعة والدماثة، أكثر من العديد من الرؤساء الآخرين، الجُهَّال المتعصبين. ربما لم يكن من الممكن أن نأسف لو بقي نظام المسيحية كما يُراد له أن يكون، وفقًا لتوضيح جاستن مارتر Justin Martyr وإكليمندس السكندري Clement of Alexandria وبعض الآخرين.

إن فلسفة التحرر Liberal Philosophy تنبذ الفضيلة وحب الحقيقة على الإطلاق بين أي شعب، ولم تكن بعد مصحوبة بأساليب فعلية خاصة، تلك التي اكتسبت بعد ذلك قوة القوانين".

كانت التربة المجاورة للإسكندرية قديمًا تشتهر بخصوبتها، ولا تزال تحتفظ بنفس الشهرة. لقد قيل أن حصادها ينتج مائة ضعف، وهو ما قد يكون صحيحًا عندما تُزرع الذُّرة، الذي يُصنع منه عادة خبز الطبقة الدنيا من الناس في الشرق. أما القمح فينتج عادة من سبعة إلى خمسة عشر ضعفًا، على الرغم من أنه في سنوات استثنائية قد ينتج أربعة وعشرون، أو حتى أعلى. يُبلغنا فورسكول Forskaol أن الحقول القريبة من القناة تُزرع في أكتوبر، وتُحْصَد في فبراير. لكن تلك التي تقترب من المدينة، التي لا يمكن سقيها من النيل، لا تُزرع حتى نوفمبر. وينضج القمح في هذه الحقول في فبراير، والشعير في مارس.

تعطلت قناة الإسكندرية لفترة طويلة، فكانت القوراب لا تصل إلى النيل من هذه المدينة سوى عن طريق الإبحار على طول الساحل إلى رشيد، في موقع مصب الفرع البولبتي Bolbitine لهذا النهر، الذي يشكل الآن الحد الغربي للدلتا. وخلال هذه الرحلة، وعلى مسافة حوالي خمسة فراسخ من الإسكندرية، يتم اجتياز:

أبو قير، كانوب القديمة

يُقال أن مدينة كانوب قد بُنيت على جزيرة عند مصب فرع النيل، الذي أخذ اسمه من المدينة، ويحد الدلتا من هذا الجانب؛ ولكن الجزيرة الآن جزء من البر الرئيسي، وقد تَعَطَّل الفرع الكانوبي للنيل. يقوم هنا معبد سيرابيس، الذي كان مشهورًا بشكل خاص؛ حيث كانت أعداد كبيرة من الغرباء تتردد باستمرار على المدينة للصلاة إلى معبودهم: أو بالأحرى، في بعض الأحيان، للاستمتاع بمَسَرَّات المكان. هذا المُلتقى من الزوار، الذين ليس لديهم ما يفعلونه سوى حضور طقوس وثن من الأوثان، ولديهم ثروة كافية للقيام برحلة لهذا الغرض، سيسعون بطبيعة الحال إلى المتعة والتسلية لأوقاتهم الشاغرة. فالمدينة التي تزخر بالأغنياء، في بلد وافر النماء، وفي مناخ جيد، لن تسع لاعتراض رغباتهم. هكذا ساءت سمعة سكان كانوب بسبب إسراف وفجور سلوكياتهم، التي شهدت انحدارًا غير محدود. لكن المصادر التي أعطت للناس ثروة وخصوبة في حقولهم، قد جفت لفترة طويلة؛ ولم يتبق من المدينة سوى الأطلال التي لا تزال تعرض آثارًا تكفي للدلالة على عظمتها الغابرة.

أبو قير التي تحتل المكان حاليًّا، هي قرية صغيرة يسكنها عدد قليل من الصيادين، والبحارة الذين يبحرون بزوارق صغيرة في البلدة، فقراء لدرجة لا تسمح لهم بتزويد مسافر بالخبز، أو أي شيء آخر ضروري، باستثناء القليل من الأسماك.

أمام القرية طريق جيد للغاية، حيث كان الأسطول الفرنسي الذي نقل بونابرت وجيشه إلى مصر، يرسو تحت قيادة الأميرال برويه Brueys عندما هاجمه الأميرال نيلسون Nelson الذي أخذ أو دمَّر كل سفنه

تقريبًا، عدا فقط سفينتين خَطّيَّتين ship of the Line[١]، وفرقاطتين Frigates استطاعت الهرب. وعلى رأس لسان يجري إلى داخل البحر يوجد حصن قليل القيمة، في وسطه كان هناك برج دائري يتم استخدامه كمنارة.

الوصف الذي قدمناه لهذا المكان ينطبق عليه كما بدا قبل الحملة الأخيرة على مصر. وعندما هاجم الفرنسيون الأتراكَ هنا تحت قيادة مصطفى باشا، تعرضت العديد من المنازل للضرب بواسطة مدافعهم فضلاً عن الحصن، ما أدى إلى تدميرها؛ وهُدمت أخرى لإفساح المجال للتحصينات التي أقاموها من أجل الدفاع عن المكان عندما كان في حوذتهم. (لوحة ٢٠).

---

(١) هي سفن ذات حجم كبير، سُميت كذلك لاصطفافها على شكل خط أثناء المعركة، وقد شاع هذا النوع من التشكيلات القتالية البحرية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر (المترجم).

رشيد ، أو روزيتا

تقع بالقرب من المكان الذي كانت فيه بولبيتين Bolbitine قديمًا؛ وهي مدينة حديثة مكتظة بالسكان، طولها حوالي ميلين، بنيت بأسلوب جميل رغم بساطته، لا تشوهها الأطلال مثل الإسكندرية. عادة ما يتم تخفيف اسم رشيد العربي من قبل الأوروبيين إلى Rosetta أو Rossetta. وتُعَدُّ المستودع التجاري بين الإسكندرية والقاهرة، ومن بين جميع الأماكن في مصر تعتبر مكان الإقامة الأكثر قبولاً بالنسبة للأجنبي. هي ذات موقع جَذَّاب على حافة النيل، يُشرف على مشهد جزيرتين جميلتين دون المدينة بقليل، وريف خصيب على الضفة المقابلة. تحيطها من الشمال الحقول المغطاة بالورود ذات الروائح والفاكهة المستحبة والخضروات المفيدة. يمكن للغريب أن يسير في الشوارع المليئة بالمتاجر الممتلئة أو في الحدائق اللطيفة المجاورة للمدينة. وهي مفتوحة تمامًا، دون أسوار. والبيوت مبنية على النسق الأوروبي أكثر من تلك الموجودة في بقية أنحاء مصر، ذات طوابق متتابعة في انتظام، واحد فوق الآخر. وترتفع كثير من المنازل على صف من الأعمدة، بارتفاع بضعة أقدام، تتكون من أجزاء من أعمدة قديمة من جميع الأشكال والأنواع. بعض منها ليس له قاعدة، والبعض لا يوجد به تاج. في بعض الأحيان سترى الجزأين العلويين لعمودين من طرازين مختلفين موضوعين معًا، التاج المأخوذ من أحدهما مستخدم كقاعدة للعمود المصنوع حديثًا؛ وإذا حدث أن تم كسر أي منهما بشكل مائل، فإن المعماري الحديث الغير قادر على تقليل سطحه للمستوى، يملأ الفراغ بقطع من الحجر أو الطوب المغمور في الملاط. وهناك ممر صغير فيما بين هذه الأعمدة، حيث يتم بناء جدار لدعم الأرضية. هذا النمط من البناء ليس مقتصرًا على رشيد، رغم أنه أكثر شيوعًا هناك مما هو عليه في معظم أجزاء مصر الأخرى.

يتألف الأوروبيون المستقرون هنا فقط من عدد قليل من الوسطاء، ونائب قنصل أو اثنين يتبعون للقناصل في القاهرة. يتم جلب البضائع من القاهرة إلى هذا المكان ويتم نقلها من هذا المكان إلى القاهرة في مراكب تابعة للبلد، ويتم الاتصال التجاري بين هذا المكان والإسكندرية بنفس الطريقة، لأنه لا يُسمح للسفن الأجنبية بالوصول إلى هناك. في الواقع يعوق اجتياز البوغاز، أو فم النيل، مانع خطير؛ حيث يرتطم البحر بشدة إذا كانت الرياح تهب بشكل نشط، خاصة باتجاه الشمال؛ فتعمل على الإزاحة باستمرار، بحيث يضطر الربابنة لأن يقوموا دومًا باستطلاع الأعماق للعثور على مسار المجرى. كما أن ضحالتها لا تسمح بإبحار أي مركب تحتاج إلى عمق كبير، رغم أن هذا هو أعمق فروع النيل التي تتصل بالبحر المتوسط.

إلى جانب السلع التي تستقبلها من القاهرة، تُرسِل إلى الإسكندرية غيرها من السلع الخاصة بها؛ إذ يتم تصنيع البياضات البسيطة والمخططة هنا بكميات كبيرة؛ ويتم في الجوار إنتاج الأرز بكميات وفيرة من نوعية ممتازة، يتم تصدير الكثير منها.

وتقع قلعة رشيد على بعد حوالى ميلين شمال المدينة، وهي لا تستحق كثيرًا الذكر كحصن؛ إذ كانت عبارة عن مبنىً مربعًا من الطوب مكسو بالحجر، في أركانه أبراج دائرية، وفتحات مزاغل قريبة من الأرض. لكنها الآن مهدمة إلى حد كبير.

يُقال أن لويس التاسع Lewis IX ملك فرنسا، المعروف باسم القديس لويس، قد قام ببنائها في زمن الحروب الصليبية. وينسبها آخرون إلى قايتباي، من أربعة قرون خلت على وجه التقريب. وهي على الأغلب قد تم إنشاؤها زمن الحروب الصليبية، وتم إصلاحها وإضافة المزاغل إليها،

بواسطة قايتباي. وقبالتها كان هناك قلعة أخرى كان المقصود منها المؤازرة في الدفاع عن مدخل النيل. والمدينة نفسها دون تحصينات.

في هذا الجزء من مصر لدينا أدلة بارزة على أهمية السكان العاملين لخصوبة الأرض. كانت جميع الأراضي بين الفرع البولبتي للنيل وما كان في الماضي الفرع الكانوبي، تنتمي إلى الدلتا، زاخرة بالناس، ولم تكن بأي حال من الأحوال أقل في الإثمار من أكثر الأجزاء خصوبة في البلاد؛ لكن أدت الحروب والمذابح، والاستبداد والطغيان، والتعصب والجهل، إلى تقليل أعداد السكان، وشلت صناعة من غادر. وبالتدريج زالت خصوبة الأرض، مفسحة المجال للرمال القاحلة؛ حتى الذراع الغربية للنهر نفسه سُدَّت وتحولت جزئيًّا إلى مستنقع راكد بالمياه المالحة. وأصبحت الآن كل الحقول والأراضي التي كانت تحاذيها على الجانب الليبي وكانت ذات يوم مثمرة كذلك، صحراء غير مأهولة تقريبًا، باستثناء موضعين هما رشيد والإسكندرية. هنا ما زلنا نرى آثار الصناعة وسط القفر المحيط. وتلك الأراضي القريبة من الإسكندرية والتي لا تزال تُسْقَى بقناتها تحتفظ بالكثير من طابعها القديم؛ أما المنطقة المجاورة مباشرة لرشيد، وسكانها الأقل تُعصبًا، والأقل عرضة لسوط الطغيان من أي مكان آخر في مصر، تُعَدُّ روضة غناء. (لوحة ٢١، ٢٢، ٢٣).

فُـــوَّه

في مكان أعلى، على نفس هذا الفرع من النيل، تقع فُوَّه، التي من المفترض أن يوجد بالقرب منها في الأزمنة القديمة، مدينة ميتلز Metelis، الشهيرة لدى المغنيات والراقصات اللواتي تعلمن هناك، وجعلن ذلك مهنتهن للترحال وإظهار مهاراتهن في الاحتفالات العامة. حتى في وقتنا الحاضر، معظم الرُّحَّل من هذا الوصف في مصر يكونون من فُوَّه.

هنا -كما هو الحال في أماكن أخرى - توقفت الهيروغليفية منذ فترة طويلة عن إعطاء أي قيمة للحجر الذي يتم قطعه، فالعديد من القطع الجميلة من الجرانيت الأحمر التي نُقشت عليها، تظهر مختلطة مع أخرى في الدرجات المؤدية نزولاً إلى النهر. انظر اللوحة (٢٤).

القَاهِـــــرَة

تقع هذه المدينة -الحاضرة الحالية لمصر -على الجانب الشرقي من النيل، على بعد أميال قليلة من تفرعه وتشكيله للدلتا. وقد اعتُقد بشكل خاطئ أنها تمتد على مساحة شاسعة، وتحتوي على عدد لا حصر له من السكان؛ إلا أنها تضمنت ثلاث مدن تبعد حوالي ميل عن بعضها البعض، هي القاهرة القديمة، والقاهرة التي يُطلق عليها صوابًا هذا الاسم، وبولاق.

كانت المدينة القديمة، التي يبدو أنها أعقبت بابليون Babylon المصرية، وبنيت بالقرب منها، تسمى مِصْر، الاسم القديم لإيجبت Egypt. وقد تقلصت مساحتها حاليًا حتى صار قطرها لا يتعدى الميلين، وتعد ميناءًا للمراكب التي تأتي من مصر العليا إلى العاصمة. ويمتلك فيها بعض البكوات وغيرهم من سكان القاهرة الرئيسيين، نوع من البيوت الريفية للإقامة أثناء ارتفاع النيل. لا يوجد بها شيء جدير بالذكر، ربما باستثناء شواني يوسف، كما يُطلق عليها، لأن الناس هنا يميلون إلى إسناد كل شيء غير عادي إلى يوسف. وهي عبارة عن مساحة مربعة كبيرة محاطة بسور، بها عدة أقسام، تودع بها الذرة التي يتم جلبها من أجزاء مصر المختلفة، ودفعها كضريبة إلى السلطان. وبما أن هذه الشواني مفتوحة بالكامل من الأعلى، فإن الذرة لا تكون عرضة فقط لعوامل المناخ، بل إلى سلب الحمائم والطيور الأخرى، التي تتغذى عليها دون عائق، تاركة فضلاتها مقابل الحبوب التي تأخذها. والأبواب لها فقط أقفال خشبية؛ لكن العُمَّال الذين يتولون حراسة الشواني بعد أن يقوموا بإغلاق الباب، يضعون ختمهم على مقدار من الطين يستخدمونه بدلاً من الشمع. هذا المبنى، على الرغم من اسمه، لا يرجع إلى العصور القديمة؛ فجدرانه

حديثة، بنيت جزئيًّا من الحجر، ولكن بشكل رئيسي من الطوب والطين، كالذي يستخدم بشكل يومي في القاهرة الجديدة[١].

بين القاهرة القديمة والجديدة تم بناء مدينة أخرى تسمى Kebaseh، أصابها الدمار في الماضي، ولكن لا يزال من الممكن رؤية آثارها.

تقع القاهرة الجديدة على بعد ميل من النهر، وتمتد ما يقرب الميلين شرقًا إلى الجبال. يبلغ محيطها سبعة أميال تقريبًا؛ مع ذلك يقال أنها كانت أكبر عندما كانت مركزًا للتجارة الآتية من جزر الهند الشرقية. يحيط بها سور من الحجر به شرفات جميلة، وعلى بعد كل مائة خطوة توجد أبراج رائعة، قادرة على استيعاب عدد كبير من الناس. لم يكن هذا السور مرتفعًا على الإطلاق، وأصابه الدمار في عدة أماكن، لكن الفرنسيون قاموا بإصلاحه بقدر استطاعتهم حينما كان المكان بحوزتهم. يوجد بهذا السور ثلاثة أو أربعة أبواب كبيرة للغاية، بناها المماليك، صناعتها جيدة جدًّا؛ ووسط كل هذه البساطة في الفن المعماري، لابد لأي شخص أن يُصْدَم بالروعة التي تظهر عليها. من بين كل هذا وضعنا هنا مشهدًا سيمكن القارئ من تكوين فكرة صائبة عن طرازه[٢].

شوارع القاهرة ضيقة غير منتظمة أو مُعَبَّدة، تفتقر إلى الجمال إلى حد كبير. تُبنى المنازل فيها بشكل عام حول فناء، ما يجعلها أفضل مظهرًا. وتطل من الخارج على الشارع، حيث لا يوجد بها شيء يستحق النظر عدا

---

(١) يقول جومار أنه كان يُطلق عليها "أهراءات يوسف" و"سويقة القمح"، وأن نسبتها إلى يوسف مستمدة من اسم "صلاح الدين يوسف" أو سلطان آخر متأخر عليه؛ أما إدوارد لين فيذكر أنها نُسبت ليوسف رغم أن منشأها يجب أن يكون متأخرًا حتى عن تأسيس الفسطاط نفسها، لأن النيل عند تأسيس تلك المدينة كان يجري مجاورًا لقصر الشمع وجامع عمرو، انظر: جومار، **وصف مدينة القاهر**: ٣٣١؛ لين، القاهرة: ٢٨٧ (المترجم).

(٢) انظر شكل (٢٥)، وبه منظرًا لباب النصر، ضمن أسوار القاهرة الشمالية (المترجم).

استخدامها، أما زخارفها فتظهر في القاعات الداخلية؛ وعلى عكس الأوروبي، الذي يرغب في جعل مظهر مسكنه ممتعًا للآخرين، يحتفظ المسلم الغيور الأناني بالمتعة لنفسه، ولا يسمح لعين بمطالعتها سوى عينيه. جدرانها الخارجي مبنية من أسفلها بالحجر، ومن الأعلى بنوع من البنية الهيكلية التي يملأها أحيانًا طوب غير محترق، من دون نوافذ، أو عدد قليل منها وُضعت دون نظام بحيث لا تكون هدفًا سهلاً للعابر الغير مبال.

على الرغم من أن شوارع القاهرة ضيقة، إلا أنها لا تخلو من بعض الميادين، التي هي عبارة عن أماكن واسعة غير منتظمة، لها نفس الطابع العام للمدينة، غير أنها فسيحة. ويُظهر مشهد الميدان الكبير صورة جيدة لها عندما تكون مياه النيل - التي ملأت الأرض أثناء الفيضان - قد تراجعت، وأفسحت مكانًا لخُضرة مبهجة لم تجففها الشمس بعد. وعلى اليسار يمكن تمييز منزل مراد بك، الذي سيكون لدينا فرصة للحديث عنه فيما يلي[١].

يوجد في القاهرة العديد من المساجد الرائعة، التي رغم أنها لا تمتلك أناقة العمارة الإغريقية، إلا أنها تُعَد حِلْية مهمة لمدينة زينتها قليلة للغاية. ويعتبر جامع السلطان حسن، الذي بُني أسفل تل القلعة، بناء سامق للغاية،

---

(١) كان الميدان المذكور يقع بالأزبكية، التي تميزت بإقامة كبار الشيوخ والأشراف منذ القرن السابع عشر، ثم بإقامة كبار الأمراء منذ أواسط القرن الثامن عشر، ويذكر لين أن طولها كان حوالي نصف ميل وأقصى عرض لها نحو ثلث ميل، ويتم الدخول إليها من شارع بولاق، عبر باب يسمى باب الألفي، على اسم ذلك الأمير الذي كان قصره يقع على الجانب الغربي، والذي كان مقرًا لإقامة نابليون ثم كليبر الذي تم اغتياله في حديقة القصر، أما قصر مراد بك المذكور، فقد حَوَّله نابليون لمعسكر لكبار ضباطه، انظر: شكل (٢٦)؛ لين، **القاهرة**: ١٣٧؛ حسن عبد الوهاب، "الأزبكية ماضيها وحاضرها"، مجلة الهندسة (القاهرة، مارس ١٩٣١)؛ حسن قاسم، **المزارات الإسلامية**، مج. ٦: ٣٥ -٤٩؛ محمد الششتاوي، **متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني** (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م): ١٦٠ -١٦٢ (المترجم).

ذي شكل مربع مستطيل Oblong Square[١] متوج بالكامل بإفريز يبرز بطريقة رائعة، ومزخرف بنوع خاص من النقوش المغايرة للطريقة التركية. ومدخله مزخرف على نحو رائع بمختلف أنواع الرخام، نُقش أعلاه بطريقة مشابهة. كانت هناك عدة درجات تشكل سُلّمًا للصعود إليه؛ لكن تم تحطيمها وسُد الباب بواسطة جدار، لأن المتمردين غالبًا ما لجأوا إلى هناك أوقات العصيان[٢] أما ما أعطى شهرة خاصة لجامع الأربعمائة عمود فقد اتضح بما فيه الكفاية من خلال اسمه. (لوحة ٢٧). غير أن مَشاهِد المساجد المختلفة المقدمة هنا في هذا العمل ستوصل فكرة عن طرازها بشكل أفضل كثيرًا من أية وصف.

تقع قلعة القاهرة على تل صخري، يبدو أنه قد تم فصله بفن عن الجبل المجاور، جبل دُوَيس؛ المعروف باسم الجبل المُقَطَّم، أو الجبل المقطوع، لهذا السبب الأكثر رجحانًا من وجود طريق يصل إلى القلعة تم نحته في الصخر. وهي تشبه مدينة صغيرة محاطة بسور، لكن يهيمن عليها مُرْتَفَع من جهة الشرق، جعلها غير قادرة على الدفاع منذ اختراع المدفع، وكانت قبل ذلك في حالة أفضل بكثير مما هي عليه الآن[٣] في غرب القلعة لا تزال هناك

---

(١) هو مصلح إنجليزي قديم يعني أن طول الشكل يبلغ ضعف عرضه (المترجم)

(٢) حدث ذلك عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م، في عهد السلطان المملوكي برقوق؛ لأن الجامع كان يستخدم أثناء الفتن كحصن مقابل للقلعة، انظر: المقريزي، **الخطط**، مج. ٤: ٢٧٤ (المترجم).

(٣) أدرك محمد علي باشا لاحقًا هذا الأمر، خاصة بعد أن استخدم هو شخصيًّا هذا المرتفع في مهاجمة القلعة ومحاصرتها عندما تحصن بها الوالي العثماني خورشيد باشا، كما أخبر الجبرتي في حوادث شهر صفر ١٢٢٠هـ/ الموافق لعام ١٨٠٥م، ولهذا قام محمد علي عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م بإنشاء حصن على جبل المقطم من الناحية الشرقية لكشف القلعة وإحكام السيطرة عليها، لا يزال موجودًا حتى الآن، انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (مصر: المطبعة العامرة الشرفية، ١٣٢٢هـ): مج. ٣: ٣٥٠ -٣٥٧؛ ا. ب. كلوت بك، **لمحة عامة إلى مصر**، ترجمة وتحرير محمد مسعود (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١م): ٢٢٦؛ محمد عبد الجواد الأصمعي، **قلعة محمد علي لا قلعة نابليون** (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م) (المترجم).

منازل كبيرة للغاية؛ بعضها مغطى بالقباب، ومزيّنة بالرسم والطلاء والنقوش العربية، وتصاوير للأشجار والمنازل بالفسيفساء. واحد منها يرجع بلا شك إلى السلاطين القدماء. ويُستخدم فقط هذا الجزء من القلعة الآن للنسيج والتطريز وإعداد الستائر أو الكسوات التي يتم إرسالها سنويًّا إلى المسجد الحرام بمكة.

أعلى من ذلك إلى الشرق توجد أرض مرتفعة، بالقرب من القاعة الكبيرة المعروفة بقاعة يُوسُف[1]، حيث يمكن من هناك رؤية مشهد رائع للقاهرة والأهرامات وجميع أنحاء البلاد. ربما كان هذا المكان يُعَدُّ شرفة للقاعة العظيمة المفتوحة حاليًا من جميع الجوانب عدا الناحية الجنوبية، وهي مزينة بأعمدة من الجرانيت الأحمر غاية في الضخامة والجمال، وهي أقل في الحجم من تلك الموجودة في الروتندا Rotunda بروما.

يُعَد التزود بالماء ضروري دائمًا للدفاع عن القلعة، ولهذا الأمر تم حفر بئر في الصخر، قد تكون على غير مستوى القلعة. فم هذه البئر عبارة عن متوازي أضلاع طوله أربع وعشرين قدمًا، وعرضه ثمانية عشر قدمًا. تم نحته دائريًّا في الصخر على شكل درج عرضه ستة أقدام، وارتفاعه تسعة أقدام، ويفصله عن البئر حاجز على يسار الصخرة الأصلية بسماكة ستة بوصات فقط، له فتحات على مسافات معينة لدخول الضوء. ويوجد خزان على عمق مائة وأربعة وستين قدمًا؛ منه يُرفَع الماء، عن طريق ثوران يقومان بتدوير دولاب يلتف عبره حبل يحمل عددًا من الجرار الفخارية. على هذا العمق يوجد رصيف به دولاب ثان، ينزل إليه ثوران عن طريق الدَّرج الذي سبق ذكره، والدرجات تم تغطيتها بالثرى لهذا الغرض؛ وهذه الثيران ترفع

(١) تصدع بناء قاعة يوسف المذكورة نتيجة انفجار كبير حدث في مخزن للبارود في القلعة عام ١٨٢٤م، مما دفع محمد علي باشا إلى هدمه حوالي عام ١٨٣٠م، وأقام مكانها جامعه الكبير الموجود حاليًا، انظر: لين، **القاهرة**: ٨٧ (المترجم).

المياه إلى الخزان بطريقة مماثلة من النبع الذي يقع أسفل البئر الثانية، على عمق مائة وثلاثين قدمًا، وتحتوي على حوالي تسعة أو عشرة أقدام من الماء. هذه البئر الثانية أصغر من السابقة، ففتحتها بطول خمسة عشر قدمًا فقط، وعرض تسعة أقدام. يوجد نزول إلى الجزء السفلي من هذه البئر كذلك عن طريق درجات نُحتت حولها؛ لكن هذه تبلغ فقط ثلاثة أقدام ونصف في العرض، ولا يوجد حاجز بينها وبين البئر، والسطح يبلغ ارتفاعه ستة أقدام فقط. ويتم توزيع مياه هذه البئر، التي يتم سحبها من الخزان الجوفي إلى خزان آخر على السطح، في جميع أنحاء القلعة بواسطة عدد من الأنابيب؛ لكن لأنها ضاربة إلى الملوحة، فإنها تستخدم فقط للأغراض العادية، ويتم جلب ما يكفي من إمدادات مياه النيل عن طريق قناة مياه من القاهرة القديمة؛ فإذا قُطعت هذه من قبل العدو، فإن البئر سيكون مصدرًا مهمًا للحامية المحاصَرَة.

يوجد في مدينة القاهرة الكثير من الحمامات، بعضها غاية في الجمال من الداخل؛ يرتادها الكثير، ليس فقط بسبب دين المسلمين الذي يأمر بالاغتسال المتكرر، بل لأنها مناسبة جدًّا في مثل هذا المناخ. هناك بعض الحمامات مخصصة بالكامل لاستخدام النساء؛ وفي الحالات التي تكون فيها مشتركة بين الجنسين، من المعتاد أن يتم تخصيص أوقات معينة لدخولهن يتم خلالها منع الرجال بشكل صارم. والنساء مغرمات بشكل خاص بها، وعادة ما يقضين الجزء الأكبر من اليوم في الحمام مرة أو مرتين أسبوعيًّا، يسعدن بحجة الهرب من محبسهن، ويبدين التبرج، أو يثرثرن مع بعضهن البعض. مع ذلك حُرِمْن من هذه المتعة زوجات الكبراء، بسبب حرص أزواجهن على تزويد منازلهم بحمامات مجهزة لهن.

يوجد هنا كذلك العديد من المقاهي الرحبة الجميلة، لها عدة فتحات من أعلى تبقيها منعشة جدًّا. تُقِل هذه المقاهي بضعة مئات من الأشخاص

بأريحية، لكن يرتادها عدد قليل غير العامة من الناس، يقضي الكثير منهم الجزء الأكبر من الليل فيها.

تعد بولاق ميناء القاهرة؛ أقيمت لإيواء المراكب التي تصل من النيل، وتمتد على طول ضفته لمسافة معينة، بها جميع مظاهر السرعة والصخب الخاصين بالتجارة. وبما أنها تُعَد مَقَرًّا أكثر صحة ومتعة للإقامة من القاهرة نفسها، فمن الطبيعي أن تكون مفضلة لدى الأوروبيين الذين يستقرون هنا من أجل التجارة. لكن إذا ما اختاروا الإقامة في القاهرة، كي يصبحوا تحت حماية الحكومة بشكل أكثر مباشر، أو إذا ما فكر الباشا بشكل مناسب في وضعهم تحت عينه وفي دائرة نفوذه بشكل أكبر، يعيشون في القاهرة ويكون لديهم مخازن فيها، حيث يتم تخصيص أحد الشوارع لاستخدامهم، يتم غلقه من جانب واحد بواسطة الأبواب، وينتهي من الطرف الآخر بحديقة جميلة، حيث يمكنهم الاستمتاع بالقليل من الهواء والتَّرَيُّض، عندما يرغبون في تجنب مملوك متعجرف أو تركي شرس، أو عندما يدفعهم الطاعون إلى عزل أنفسهم عن أي اتصال بباقي المدينة.

حجم التجارة التي تُمارس في القاهرة هي بالتأكيد ضخمة للغاية؛ فقد نما إلى علمنا بأن قيمة السلع التي دخلت إلى الجمارك عام ١٧٨٣م كانت بين ستة وسبعة ملايين جنيه إسترليني. وبلغت قيمة الأرز والذرة والكتان والبن المُصَدَّرة نحو مليوني جنيه؛ علاوة على العقاقير والتوابل والقطن والجلود والسلع الأخرى.

يُقَدَّر عدد سكان القاهرة بمليوني نسمة، لكن ربما يعتبر هذا مجافيًا للحقيقة إلى حد كبير؛ رغم أنه من المؤكد موت سبعة آلاف من الطاعون في يوم واحد، وبناء عليه يقولون أنهم باستطاعتهم إجراء حساب دقيق من عدد النعوش المؤجرة لحمل الموتى. مع ذلك يمكننا أن نفترض ذلك العدد

لكونه مكانًا مزدحمًا جدًّا بالسكان؛ فبشكل عام، تعيش عدة عائلات في منزل واحد، وعدد من الأشخاص في كل غرفة منها؛ وأثناء وقت الذروة من اليوم تزدحم جميع الشوارع بالناس، بحيث يكون من الصعب عليهم المرور عبرها.

في وسط النهر، بين القاهرة القديمة والجيزة، تقع جزيرة الروضة، الذي يوجد بها مقياس النيل، الموصوف آنفًا في هذا العمل. تنقسم الجزيرة بالكامل تقريبًا إلى بساتين تقتصر زراعتها على سكانها.

إن المشاهد التي رسمها السيد ماير لأجزاء مختلفة من العاصمة والإسكندرية ورشيد وأبي قير، تعطي صورة حيَّة للأسلوب العام للبناء في مدن مصر؛ إلا أن السلسلة ستكون غير مكتملة إذا استُثنيت القرية. يعرض كفر رضوان وسنيت Ned Sili اللذان يقعان على ضفاف النيل بين القاهرة ورشيد، وغيرهما، أمثلة كافية للعمارة الريفية، بينما يظهر الريف نفسه بشكل حقيقي في عدد كبير من اللوحات. بصفة عامة، تعتبر مساكن المصريين الريفية متواضعة، بحيث يتم تعويض فقدانها بسهولة عندما يجتاحها النيل في بعض الأحيان. فعلى الرغم من أن تيار هذا النهر ليس سريعًا بشكل عام، فإنه يُقَوِّضُ ضفافه من وقت لآخر حتى تَغُور في مجرى النهر بالمنازل والأشجار وكل شيء عليها. يترسب الطمي والرمال التي تُجْرف في مكان ما حيثما يضعف التيار لتعزز حدود الشاطئ، أو تؤدي إلى ظهور جزر جديدة يمكن أن تزول مستقبليًّا بطريقة مماثلة، وتنتقل إلى موقع مختلف. مثل هذه الحالات التي تحدث أمام أعيننا في الوقت الحاضر تتجه بالطبع إلى تأكيد الرأي القائل بأن الدلتا نفسها هي هبة قديمة من النيل.

عادات وتقاليد

إن حكومة مصر القديمة، في عهد الفراعنة على أقل تقدير، والتي تعود إلى أبعد ما يمكننا أن نصل إليه بعلمنا، تَحْمِلُ تشابهًا مُذْهِلاً مع حكومتنا الحالية. نستخدم كلمات الدكتور روثرفورد Dr.Rutherford التي استطاع استنطاقها ببلاغة عبر روح التاريخ الحقيقية: "لم يكن ذلك استبدادًا؛ بل كانت بالفعل ملكية حقيقية، من مبدأ وشكل قانونها الأساسي؛ وهو الحُكْم الأوحد في كل العصور القديمة الذي يطابق فكرتنا عن المَلَكِيَّة. لقد تم وضع حدود للسلطة المَلَكِيَّة بموجب القوانين؛ وتم ضبط نظام الوراثة؛ فلم يكن للمَلِك الحق في الحُكْم أو النطق بالحُكْم في أي قضية مدنية؛ وكانت إقامة العدالة مقصورة على هيئة معينة، يمكن أن يقابل اعتمادها كل سلطة الفراعنة. وهكذا، باستخدام لغة مونتسكيو Montesquieu، تم تقسيم السُّلْطَة. تم فصل السُّلْطَة القضائية عن المَلَكِيَّة. وساهم ثلاثون قاضيًا في ترسيخ المحكمة الجليلة التي كانت تُقرر ما يتعلق بحياة الناس وثرواتهم. كان لديهم دخول ثابتة، ويبقون في مناصبهم مدى الحياة، ما جعلهم مستقلين عن العاهل. يُقْسِمُ هؤلاء القضاة قَسَمًا رسميًّا لدى تنصيبهم، بأنهم سيعصون المَلِك في حال أمرهم بإصدار حكم جائر. بجانب هذه المحكمة الثلاثينية التي أقيمت في طيبة، أُقر قضاة محددون في المدن لأسباب معينة. لم يقم المَلكِ بفرض الضرائب على رعاياه من دون موافقتهم. وقامت الأقاليم، من وقت لآخر، بإرسال مفوضين، اجتمعوا للفصل في جميع أمور الدولة. كانت طريقتهم في تسيير العدالة بها جلال وقدسية، تعطينا فكرة عن أناس أجلاء عادلين. لا يظهر أي محام في المحكمة، ولا يُسمح للفصاحة بالإبهار والخداع، إذ كانت العملية برمتها عملية كتابية. كان الرئيس يرتدي حول عنقه شعارًا

بدون عينين، يمثل الحق: وقد خَص هذا الرمز رأس الفريق الذي يرجع إليه أمر الفصل في القرار.

نتيجة للنظام الملكي المُقَيَّد الذي أُنشئ في مصر، نجد اهتمامًا أكبر بحقوق الرَّعِيَّة، أكثر مما كان معروفًا أو متخيلاً في الإمبراطوريات الشرقية. لقد تم الحفاظ على هدفين أساسيين من أهداف سلطة الحُكْم عن طريق القوانين، هما أمن الممتلكات وحياة المواطنين. لقد سبق وأن وصفنا تسيير العدالة. كذلك تمت حماية الفرد من الرعيَّة؛ وتم احترام حقوق الإنسان الطبيعية، واحترام حياته. لم يكن التعويض المالي عن القتل - الذي يُمثل مرحلة معينة من المجتمع بين البربرية والتحضر - معروف في مصر. تم تأمين حياة جميع المواطنين على قدم المساواة. وعوقب القاتل بالموت، دون اعتبار لشخص أو منزلة؛ لكن المحاكمة العادلة كانت دائمًا سابقة للحُكْم. كانت القرارات العاجلة للحكومة المستبدة غير معروفة. وكانت التبرئة أو الإدانة تتم وفقًا للقوانين.

يؤكد هذا الكلام، النصوص المقدسة، التي تتفق مع صفوة الأخبار التي وصلتنا من العصور الكلاسيكية القديمة، في كل ما يتعلق بمصر. فإن يُوسف، المَوْلَى العَبْرَاني، قد اتُّهِم بأنه تسبب بالإهانة الأكثر خِزيًا وإزعاجًا لسيده، أحد أعظم الأمراء في بلاط الفرعون؛ مع ذلك لم يَحْكُم سيده عليه بالموت الفوري، كما كان سيفعل أي مستبد شرقي، وإنما أرسله إلى السجن المعتاد، ليتم محاكمته وفقاً للقوانين".

هكذا كان حُكم مصر خلال أكثر دولها ازدهارًا. وقد تغير منذ ذلك الحين مع الثورات التي شهدتها البلاد، رغم أنه كان دائمًا مستبدًّا بشكل أكثر أو أقل، حتى إنها غرقت في النهاية في حالة أسوأ مما يمكن تصوره؛ واشترك البلد وأهله في تراجعه.

عندما قام سليم الأول بفتح مصر عام ١٥١٧م، كان يرسل باشا ليحكمها كنائب عنه. وفي نفس الوقت، خوفًا من أن يقوم هذا النائب بالاستقلال سريعًا إذا تركه يمتلك سلطة مطلقة، عَيَّن أربعة وعشرين من بكوات المماليك، من الذين لم يَقض عليهم. كان هؤلاء لحُكم الأقاليم بشكل مستقل عن الباشا، ولقيادة القوات، وتشكيل ديوان أو مجلس للولاية. وكان أحد هؤلاء لقيادة قافلة الحج إلى مكة، وواحد لنقل الخراج إلى القسطنطينية، وواحد يتم اختياره شيخًا للبلد، لكنه يخضع لتصديق الباشا. كان شيخ البلد هذا يعتبر آمرًا على البلاد، طبقًا للنظام الذي وضعه سليم. وكذلك من أجل أن يشرح المظالم للباب العالي، إذا ارتكب الباشا أي عمل من أعمال الظلم، التي من المنوط بسلطة البكوات تعليقها في مثل هذه الحالات. وهكذا، أعاقوا الباشا عن كبح أول توطيد لهم، وتمتعوا هم بالسلطة الاستبدادية، موظِّفِين الجزء الأكبر من الثروة التي اكتسبوها أو ابتزوها في الحفاظ على حاشية من العبيد، وتدريبهم على استخدام الأسلحة، وركوب الخيل والتَّجَهُّز بشكل جيد. ولا عجب من أن الوالي العثماني غرق في حُكْم وهمي خالص، بينما تنافس البكوات الطموحين فيما بينهم على السيادة الحقيقية.

وعلى ذلك، فإن هؤلاء البكوات، رغم أن القليل منهم من كان يستمر، تورطوا على الدوام في نزاع مع بعضهم البعض؛ حيث تم تشكيل الفرق، وخوض المعارك. وكانت السعادة بالنسبة للشعب تتمثل في أن يمتلك أحدهم القوة الكافية لإحراز السلطة العليا، ويقبض عليها دون منافسة. لا يزال كل بك من البكوات، سواء أكان مقيمًا في العاصمة كمشترك في الحكم أو تابع، أو يجول حول البلد الذي طُرد منه على يد خصم ناجح؛ يمارس سلطة مطلقة على الشعب. وهناك سلسلة من المسئولين الأدنى مرتبة يمارسون استبدادًا مساويًا في دوائرهم الخاصة. هناك نحو أربعمائة شخص يقيمون في القاهرة - كما يقول السيد بروس - يملكون السلطة

المطلقة، ويديرون ما يسمونه بالعدالة، بطريقتهم الخاصة ووفقًا لرأيهم؛ لكن ليس هناك على الأرض من هم أكثر وحشية وجورًا واستبدادًا وجشعًا، من مجموعة الأوغاد الشيطانيين، أعضاء حكومة القاهرة.

إن معرفتنا بدين المصري القديم غامضة وغير مكتملة ؛ فالنقل المتوارث من أسلافنا الأوائل، والذي كان يُساء فهمه في بعض الأحيان بسبب النقص الطبيعي في معرفة اللغة، الممتزج بالاكتشافات في الفنون والعلوم كما نشأت، ربما شَكَّل أساسًا لتصويره كدين وثني بشكل عام. يجب أن تكون الكتابة الهيروغليفية الخاصة بالمصريين مصدرًا خصبًا لهذا التصحيف. سواء كان الحَكِيمُ مدركًا أن الأصوات في حد ذاتها ليست كافية لوصف الأشياء المرئية، فاخترع هذه اللغة الرمزية لتصوير الأشياء بدقة أكبر، وبالتالي -كما تَصَوَّر هو - تحفظها من سوء الفهم؛ أو أن الكاهن، المُودَع لديه كل المعرفة، صاغها لإخفاء ما يعرفه عن العامة؛ رغم أن وفرة الكتابات الهيروغليفية في كل مكان لتصير على مرأى من الناس، قد جعلها على ما يبدو تدعم الرأي السابق. كان من المحتمل سريعًا أن يلتبس فهمها، فيستند العقل على الرمز، أو لا يكتفي بالدلالة الواضحة، فيندفع فيما ورائها، ليفقدها في بحر الغموض المبهم. ومن هنا نشأت مع الوقت مجموعة متنوعة من الأساطير، كانت فيها الأجرام السماوية، وقوة الطبيعة، والظواهر الخاصة بالبلد، وتقاليد خلق العالم، مختلطة معًا، وممزوجة بعبادة الحيوانات، التي عَلَّم الحَكِيمُ الناسَ لأول مرة أن يحافظوا عليها من أجل المنافع التي تقدمها، وفي النهاية تم رفع الميساجوجو Mystagogue[1] لمرتبة الآلهة. بل واعتُبرت بعض الخضروات

(١) هو الشخص الذي يجعل الآخرين يعتنقون معتقدات غامضة، وهو الراهب أو المُعَلِّم أو الشخص الذي لديه معرفة بالأسرار المقدسة للنظام الخاص بأحد المعتقدات. ويُطلق عليه كذلك Hierophant (المترجم).

كنوع من المعبودات. والمفارقة أن أمم وثنية أخرى، لديها معبودات كثيرة بما فيه الكفاية، أمكنها السخرية من المصريين على عشقهم للتعدد. ومع ذلك، فإن العديد من هذه كانت معبودات محلية فقط؛ كانت هناك المدينة التي تشتهر بعبادة أحد الحيوانات، وأخرى بعبادة حيوان آخر؛ وكان أهل القرية الواحدة يعامِلون بازدراء ما يعتنقه سكان القرية المجاورة.

لاحظنا بالفعل أن المسيحية سرعان ما ترسخت في مصر الإغريقية، حيث ازدهرت بسرعة، لكنها سرعان ما فسدت مثلما انتشرت. إن النزاعات اللفظية التي نشأت، مُوَلِّدَة في النهاية مشاهد مشينة للإنسانية من مصدر مقصود منه رفع الطبيعة البشرية إلى أعلى درجة من الكمال، لم تكن هي كل ما يجب أن يُرثى. وسرعان ما انتشرت المِلْكَانيِّة Monarchism على نطاق واسع بين المصريين، الذين كانوا معتادين في السابق على حياة التَّأمل والعُزْلَة والخمول الصَّالِح؛ وصاحب ذلك نذورها غير الطبيعية وغير المقدسة بالامتناع عن الزواج، والبطالة، والفقر. بالتأكيد لا فائدة من السلوكيات العامة لتلك الفِرق التي تم التعلق بها، وحتى في يومنا هذا لم تنته في بعض الأمم المستنيرة -كما يُطلق عليها -في أوروبا. كانت مدينة أوكسيرينخوس Oxyrinchus[1]، تَكْثُر فيها الأديرة، ويقال أن العدد الأكبر من سكانها كان يتألف من الرهبان، و كانت صحارى إقليم طيبة آهلة بالنُسَّاك.

لا يزال الأقباط أو السكان الأصليين الحاليين لمصر يعتنقون المسيحية؛ التي انتقلت إليهم عبر هذا المسار الملوث، فهم لا يعلمون عنها سوى الاسم.

---

(١) هي أوكسيرينخوس بوليس، وتعني "مدينة السَّمك"، هو الاسم اليوناني لمدينة مصرية قديمة، أطلق عليها العرب المسلمون بعد الفتح "البهنسا"، تقع على الضفة الغربية من بحر يوسف على بعد نحو مائة وستين كيلومترًا جنوب غرب القاهرة، انظر: رمزي، **القاموس الجغرافي**، ق. ٢: مج. ٣: ٢١١ (المترجم).

والقسيسون الرهبان أنفسهم على نفس جهل العامة تقريبًا. لكن لا يعتبر هذا الدين هو المعمول به في البلاد، على الرغم من أن الأقباط واصلوا ممارسته بجانب غزاتهم المسلمين، الذي أدخلوا الإسلام، دين من يملكون في أيديهم السلطة، وكذلك العرب الذين يتجولون في الصحراء، أو يزرعون الحقول التي يستقرون بها كمزارعين.

يُقَدَّر عدد سكان مصر بأربعة ملايين نسمة. يتألفون من خليط من الأتراك، والمماليك، والعرب، والأقباط؛ كل جنس منها له ميزاته، على الرغم من أن السلوكيات العامة في الشرق مشتركة بينهم جميعًا، بشكل يقل أو يكثر. فالأتراك -على الأقل من يَدَّعُون السيادة على مصر- يتواجدون بشكل رئيسي في القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط، إما كجنود أو في وظائف دينية؛ مع ذلك فهم يتمتعون بسلطة ضئيلة، كما أن الانكشارية أنفسهم، ليس لديهم انضباط أو روح، يخافون من المماليك مثلهم مثل غيرهم من الناس. ربما يكون هذا أحد أسباب، لماذا هم أكثر صلفًا من العرب بكثير بالنسبة للأوروبيين، الذين في المقابل تعلموا منهم مبكرًا تصور الكراهية، لأن أمهاتهم استخدمن كلمة أوروبي باعتبارها مصدرًا لإخافتهم عندما كانوا صغارًا. أما العرب فنظروا إليهم دون أية عاطفة وديَّة؛ وأمثال هؤلاء هم من تسبب في النهب والمعاملة السيئة لقوافل الحج إلى مكة، بعد مغادرتها القاهرة.

أما المماليك، حكام مصر الحقيقيين، فهم مجموعة من العبيد. استُؤصلوا من بلدهم الأصلي، وهم بعيدون كل البعد عن رباط الأبوين، لأنه قد تم بيع معظمهم من قبل والديهم، ونادرًا ما كان لهم نسلهم الخاص؛ تربوا وسط أكثر الممارسات السيئة، تحيط بهم النماذج الوضيعة؛ فلا عجب أنهم يستحقون بشكل عام الوصف الذي وصفهم به السيد بروس. إلا أن امتلاك البعض منهم صفات جيدة، وحتى فضائل فئة معينة، يقدم ربما

أحد أقوى الدلائل على التفوق الأصلي للطبيعة البشرية، الذي ينبغي أن يظهر من حين لآخر بين مجموعة من الرجال، كان تعليمهم وكذا جميع الظروف التي وُضعوا فيها، تنزع بكل الطرق تقريبًا إلى إفساد العقل والقلب. العديد من هؤلاء وُلدوا من أبوين مسيحيين، والقليل منهم من الزنوج؛ لكن جميعهم جُلبوا كعبيد من بلاد أجنبية، وتم شراؤهم من السوق من قِبَل بعض البكوات، الذين كانوا في يوم من الأيام مماليك بدورهم. وبمجرد أن يتم إحضار الصبي - أيًّا كان هو - إلى منزل البك، يَدخل في دين سيده عن طريق الختان، ويتعلم امتطاء الخيل واستخدام الأسلحة، خاصة الرمح والسيف. وللتفوق في هذه الأمور يرضخ تمامًا لسيده، الذي سرعان ما يعلمه الرذيلة، التي من مجرد ذكرها يَشعر أي شخص يستحق لقب إنسان بالاشمئزاز؛ فهذه هي الأشياء الوحيدة التي تعيره الاعتبار، وعن طريقها يمكنه أن يأمل في الوصول إلى ذروة السلطة. وعندما يصل لعمر مناسب وخبرة كافية في ممارساته، يعتبر المملوك الشاب نفسه جنديًّا، وهو لقب لا يُسمح به للتركي الذي يقاتل على الأقدام. فهو لا يخرج أبدًا إلا على صهوة الجياد، وهي مزية تقتصر تقريبًا عليه، لأن امتطاء الخيل محظور على النصراني، وحتى التاجر المسلم الثري أو الشيخ يقتصر ركوبهم على الحمار أو البغل.

المملوك المحظوظ الذي من المتوقع أن يرضي سيده، يحرز سريعًا بعض المناصب، حيث يتم ترقيته بما يتناسب مع السلطة والنفوذ التي يمتلكها كفيله، حتى يصل في النهاية هو نفسه إلى أن يصبح بك. وبما أن كل القوة هنا هي القوة التي يتمتع بها الرجل في السلطة، فإن كل واحد من البكوات حريص على شراء أكبر عدد ممكن من هؤلاء العبيد بقدر ما يمكنه الإنفاق عليهم، ووضعهم في مناصب يمكنهم فيها إحراز الوسائل التي يشترون بها أتباع مماثلين لأنفسهم، وهكذا يمكنه توسيع عدد أنصاره، وبالتالي الحصول على السيادة على نظرائه من البكوات؛ أو على

الأقل الحفاظ على نصيب مماثل من السلطة، دون أن يستبد به من هو أرفع منزلة. غالبًا ما يتم خوض هذه المنافسة لأجل معارك السلطة؛ ومن يستطيع أن يجلب التابعين الأكثر إلى الميدان، أو يكون أنصاره هم الأشجع والأكثر خبرة في استخدام السلاح، فإنه عادة ما يطرد منافسه من المدينة، إذا لم يحرمه من حياته.

تكون هذه الحاشية العسكرية مكلفة للغاية، ما يؤدي -لحسن الحظ -إلى تقليص عدد الطغاة. يتكون ثوب المماليك من قميص واسع من القطن الضارب إلى الصفرة، فوقه رداء من الكتان الهندي، أو بعض النسيج الخفيف من دمشق أو حلب. فوق هذا الرداء يكون القفطان، الذي عادة ما يصنع من بعض أفضل المواد، أو الحرير، ويكون له أكمام تصل إلى أطراف الأصابع. يتم تثبيت هذه الملابس بواسطة مئزر، يقسمها إلى قسمين. على كل هذا يتم ارتداء الجبة، وهي نوع من المعاطف تماثل المذكور آنفًا في الشكل تقريبًا، غير أنها فقط مقطوعة الأكمام عند المرفق. تُصنع هذه من القماش، دون بطانة في بعض الأحيان، وأحيانًا أخرى مبطنة بالفراء، حتى في الصيف. وفوق هذا يتم ارتداء البِنيش Benish أو ثوب التشريفات الذي يغطي مرتديه تمامًا، حتى أن أطراف أصابعه تكون غير قابلة للرؤية. وتخرج من هذه السترة الرقبة العارية، والرأس المجرد الذي يُغطى بعمامة صفراء، يلتف حول جزئها السفلي لُفافة من الموصلين Muslin المطوي بعناية. ولإكمال هذه الملابس المرهِقة، يرتدي هؤلاء نوعًا من السراويل الطويلة بما يكفي للوصول إلى الذقن، وفضفاضة جدًّا بحيث يمكن لحجم كل ساق أن يحتوي جسد إنسان. وهذا لا يؤدي بالضرورة إلى عجزهم تمامًا عن المشي، فكل الأجزاء الفضفاضة من ملابسهم مقيدة بمئزر.

تجهيزات خيولهم أكثر براعة بعض الشيء. يرتفع الجزء الخلفي من السرج حوالي ثمانية بوصات، ومن الأمام أربع أو خمس بوصات. وبدلاً من الإطار المحشو، يتم وضع ثلاثة من الأقمشة الصوفية السميكة تحت السرج، حيث يتم ربط الكل بحزام، لا يتم تثبيته عن طريق إبزيم، وإنما بواسطة سيور جلدية يتم ربطها بأربطة معقدة للغاية، تكون عرضة للانزلاق. وتُصنَع الركائب من النحاس، وكثيرًا ما تُذَهَّب، وتكون أطول وأعرض من قدم لها جوانب دائرية، بارتفاع بوصة من المنتصف، وتنتهي من الخلف برأس حادة، تستخدم بدلاً من المهماز. لا يقل وزن هذه الركائب عن تسعة أو عشرة أرطال، وغالبًا ما تكون ثلاثة عشر أو أكثر، في حين أن السرج وملحقاته الأخرى لا تقل عن خمسة وعشرين رطلاً. سلاحهم الرئيسي هو السيف، الذي لا يقل طوله عن ثلاثين بوصه، رغم أنه معقوف بشكل كبير، يُعلَّق في حزام الكتف، مُزيَّنًا بثراء بالذهب والفضة. لديهم كذلك بنادق صغيرة Blunderbuss إنجليزية، طولها حوالي ثلاثين بوصة، وقادرة على إطلاق عشرة أو اثنتي عشرة قذيفة في المرة؛ وأحيانًا يحملون قضيبًا ثقيلًا في حامل سهامهم، بجانب حامل طبنجة كبيرة معلقًا في مئزرهم. يلتزم أسيادهم في شهر رمضان من كل عام بإعطائهم طقمًا جديدًا من الملابس؛ وكثيرًا ما كانوا يطلبون خيولاً جديدة أو أثاث. وبالتالي لا يوجد أحد منهم يُكَلِّف أقل من مائة جنيه في السنة، والكثير منهم فوق المائتين. (لوحة ٣٥).

يعتبر هذا الوضع فريدًا من نوعه، لأنه في سلسلة من العصور المتعاقبة، لم يكن أبدًا لمجموعة رجال في السلطة السعي لترك ثروتهم ومنزلتهم لذريتهم الخاصة، مفضِّلين على ذلك شخصًا غريبًا، مملوكًا قاموا بشرائه. صحيح أن البكوات نادرًا ما يكون لديهم نسلاً، وإذا كان لديهم نادرًا ما يظلون على قيد الحياة؛ وكلا الأمرين راجعًا ربما لممارستهم البغاء منذ شبابهم المبكر؛ ولكن مهما كان عدد الأبناء الذي قد يتركهم البك لدى موته، فإن الخازندار خاصته، أو أمين ثروته، الذي هو رئيس موظفيه

الداخليين، الذي اختاره البك من بين مماليكه، يسيطر على عائلته بالكامل، ويتزوج زوجته، ويرث منزلته وثروته.

يوجد قبائل مختلفة من العرب الذين يُعتقد أنهم يشكلون ثلثي سكان مصر، لكنهم عادة ما يتمايزون من خلال نمط حياتهم إلى فئتين. الفلاحون الذين يسكنون القرى؛ والبدو أو العرب الرُّحل الذين يسكنون الخيام. فالفلاحين الذين لديهم مساكن ثابتة، وعلاقات أكثر استقرارًا مع أهل البلد الآخرين، تبنوا إلى حد ما سلوكيات هؤلاء؛ لكن البدو ظلوا كما هم منذ عصور بعيدة؛ يجوبون الصحاري بحثًا عن الكلأ لأغنامهم وجمالهم، لديهم كراهية لا تُقهر للقيد، ويَنظرون لسكان المدن على أنهم مدفونين على قيد الحياة. يحتفظون لأنفسهم بسيادة المناطق القاحلة التي يجوبونها، ويعتقدون بالتالي أن لهم الحق في فرض رسوم تعسفية على الذين يمرون بها، هذا إذا لم يقوموا بمصادرة كل ما يدخل أراضيهم بشكل كامل. هذه هي طريقة سرقة المسافر؛ ولتجنب ذلك، صار يُسَلِّح نفسه ويرتبط بالآخرين، ويُشَكّل عددًا من القوافل. وبالتالي يرى الزعيم البدوي أن السلب بالاحتيال من حقه، ويحشد أفراد عشيرته؛ وإذا كان قويًّا بما فيه الكفاية، يهاجم القافلة صراحة؛ أما إذا كان ضعيفًا، فيحاول مباغتتها، أو توقيف بعض من كان بمنأىً عنها، أو أخذ بعضًا من جمالها في الليل. غير أن مواصلة تجارة منتظمة على مثل هذا النحو، يُعَرِّض التاجر لأخطار يمكن أن يتجنبها إذا أراد، ويحرّر نفسه عن طريق الموافقة على دفع مقابل معين. لكن ربما يدفعه حب الكسب إلى التهرب مما يراه استغلالاً، وهو ما يعتبره العرب انتهاكًا للاتفاق، فتنشأ عداوات جديدة، وتبدأ حالة حرب، تنتهي بتسويات جديدة.

بهذه الطريقة يسير الجزء الرئيسي من تجارة مصر. تصل كل عام إلى القاهرة قافلتان من الأجزاء الجنوبية والغربية لإفريقيا، تجلبان العبيد، والصمغ، والعاج، والذهب، وريش النعام، وخشب الأبانوس، والزَّبَاد، والمِسْك، والأسواط الجلدية المستخدمة في الجَلْد، وقِرَب المياه الجلدية والببغاوات والقرود. وتتألف قافلة الجنوب من النوبيين، وأخرى من الجالوف Jalofs. وهناك قافلة ثالثة تأتي من المغرب بالحجاج إلى مكة، تمر عبر القاهرة.

لا يمكن إنكار اعتياد البدو على النهب كلما سنحت لهم الفرصة؛ لكنهم بالتأكيد قادرون على الإخلاص في أي اتفاق يبرمونه، ويحافظون على قوانين الضيافة المقدسة، وهم معروفين بنجدة من تمت سرقتهم ونقلهم إلى مكان وجهتهم. هناك مقولة شرقية تقول بأن أهل حلب رائعون، وأهل سورية بائسون، والمصريون لصوص، والهندوس هم المفضلون لدى الله. لا نعرف ما إذ كان هذا الأمر ينطبق على جنس معين من الأجناس المختلفة التي تسكن مصر، أو أن الأمر مشتركًا فيما بينهم جميعًا. يبدو أن الأمر الأخير هو الصحيح، وفقًا للرحالة الفلورانسي الشهير، أباتي سيستيني Abate Sestini[(١)] الذي يلاحظ أن: "مناخ هذا البلد، رغم أنه يحظى بالتقدير الأفضل في العالم، إلا أن له تأثير مادي ومعنوي على السكان؛ ما يجعل مصر على غرار وَكْر اللصوص، دون انتقاص من نزاهة شخص بعينه". لكن من المحتمل أن المثل الشرقي لا يعود لتاريخ موغل في القدم، وقد تُعزى هذه الخاصية إلى الحُكْم الذي تحدثنا عنه، بشكل أكثر من المناخ، حيث يقول الكاتب الإيطالي نفسه: "عندما يصل الحُكْم الذي كان صالحًا في وقت من الأوقات إلى مرحلة معينة من الفساد، لابد وأن

(١) الرحالة الإيطالي، أباتي دومينيكو سيستيني Abate Domenico Sestini (١٧٥٠ -١٨٣٢م) (المترجم).

تكون العاقبة هي انقضائه، وربما ليس ببعيد ذلك الزمن الذي ستشهد فيه هذه البلاد ثورة عظيمة". قد يكون من الصواب ملاحظة أن هذه النبوءة قد تم نشرها قبل ثلاثة عشر عامًا.

كان كرم الضيافة لدى العرب يمثل دائمًا موضوعًا للثناء، وهو فضيلة لا تزال تُمَارس فيما بينهم، وتشيع لدى كل من تقترب حياتهم من الطبيعة. إن ما يعامِلون به المسافر من خُلُق، ودعواتهم له بما يمكن أن يمنحوه، هي أشياء مرحب بها في رحلته؛ رغم أنه لا يمكن للمسافر في بلد به قرى متفرقة، ونادرًا ما يكون فيه لدى الفلاح ما يكفيه من الغذاء الرديء، أن يعتمد - ولو قليلاً - على ذلك من أجل تجهيزه أو مؤونته.

من الملاحظ أن الشعب المصري ليس مرحًا على الإطلاق، لكنه مع ذلك له احتفالاته الخاصة. فمشهد ذلك الحفل الراقص في سنيت يعطي فكرة صائبة عن أسلوب رقصهم فضلاً عن أدواتهم الموسيقية. (لوحة ٣٧). والاحتفال في كفر رضوان يُعَد طريفًا، ويصور عاداتهم في مثل هذه المناسبات. (لوحة ٣٨). عادة ما تقام هذه الاحتفالات مرة في السنة، وتستمر لمدة شهر. ومثل سافويارد Savoyard في أوروبا، هنا كذلك يسافر اليمني الأصلي متجولاً بقرد سهل الانقياد، يجيد عرض آلاف السلوكيات الغريبة لتسلية الجماهير وكسب الرزق لسيده.

إن المقاهي الموجودة في المدينة، حيث يجلس المُسْلِم في صمت على الأرض فوق حصيرته، يستنشق بأناة دخان التبغ من غليونه الطويل، أو يرشف قهوة مغلية ساده دون حليب أو سكر، ستكون مملة حقًا إن لم يتم إنعاشها من حين لآخر بوسائل التسلية المختلفة. من بين هذه الوسائل، يحتل الرَّاوي المُتَجَوِّل مكانة بارزة. فعادة ما يزورها بعض الشيوخ الفقراء في ساعات معينة، يقومون أحيانًا بسرد مآثر عنترة، ذلك البطل العربي الذي عاش قبل النبي محمد، ورستم زال الفارسي، أو بيبرس ملك مصر؛ وأحيانًا

أخرى المغامرات الهزلية لبهلول، مهرج الخليفة الشهير هارون الرشيد، والتي غالبًا ما تتضمن فحواها أخلاقًا حميدة. ويسير الراوي البارع أثناء سرده، محاكيًا ما يقول بطريقة حيَّة؛ ويقدم في بعض الأحيان حكايات أو أساطير من تأليفه. وعندما ينتهي، يجمع أجره من الزُّمْرة المجتمِعة؛ وبما أن هذا سيكون عادة متناسبًا مع براعة أدائه، فلديه حافز آخر لإبراز تفوقه بالإضافة إلى رغبته في الشهرة لديهم كذلك العزف والموسيقى الغنائية، والدُّمَى، والفانوس السحري، وغيرها من وسائل التسلية.

في حين أن الرجال لديهم المقاهي، فإن النساء في مصر -كما رأينا- لديهن حَمَّاماتهن الخاصة، يتمتعن فيها بدرجة من التحرر من حالة العُزلة التي يوضعن فيها من قِبَل المتسلطين بالمنازل. في بعض النواحي يتمتعن بمزايا أكثر من الرجال؛ فهن لا يتعرضن مثل الرجال للنهب وسوء المعاملة من قِبَل الكبار. وتكون جميع ملابسهن وجواهرهن ملك خاص لهن، لا يملك الزوج أي سلطة عليها. ويجوز لهن أن يرثن الأرض، وكذلك الرجال، وأن يحصلن على حيازتها بدفع غرامة للحكومة، لا يُعْفى منها أي منهن؛ وبما أن الرأي العام مواتٍ لهن، فإن ممتلكاتهن تحظى بقدر أكبر من الاحترام، ويتم معاملتهن بمزيد من الإنصاف. وبالمثل فإن شكاواهن تُنظر بأناة أكثر، رغم أنهن في بعض الأحيان يتصرفن بتجاوز، عندما يعتقدن أن هناك ظلم وقع عليهن.

إن تبذير الطبقات الراقية في البلدان التي وصلت إلى حد معين من الرفاهية، لابد أن يثير الحنق في حالة الشعور الطبيعي، وليس من الضروري أن يثير إعجابنا؛ لكن من اللافت للنظر أنه حتى بين عرب الصحراء، فإن بعض زوجات الأغنياء لا يُرضعن أطفالهن، بل يستخدمن مرضعات.

تثير الطريقة التي تَحمل بها المرأة المصرية أطفالها، دهشة المُشاهد الأوروبي؛ إذ يجلس الرضيع الذي لا يزيد عمره عن عام أو عامين -من

الأولاد والبنات على السواء - على إحدى كتفي الأم، وهو عار تمامًا، ويحافظ على مكانه عن طريق التشبث برأس والدته، وذلك حتى يبلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر. هكذا تأخذه المرأة باستمرار معها في أي عمل يمكن أن تنشغل به. حتى عندما تغسل ملابسها على جانب النهر، حيث تجثو على حجر، وتنحني فوق الماء الذي تفرك فيه كلتا يديها بهمة، يتشبث الطفل برأسها مثل القرد الصغير؛ وهي لا تملك أي شيء لتأمينه من السقوط في المجرى إذا أفلت من تشبثه.

عندما تكون أفضل الوسائل لتحقيق أهدافنا هي الرغبة، كثيرًا ما تقترح الطرق البديهية نفسها ببساطة على العقل الجاهل. فالعربي يقرأ الوقت ليلاً عن طريق مواقع النجوم، مثل حوذي شكسبير؛ لكن أثناء النهار يقيس طول ظله، واضعًا في اعتباره التفاوت المناسب لذلك الوقت من العام. وهكذا، لدى انقلاب الشمس في الصيف، عندما يمتد ظله بطول أحد قدميه من النقطة الرأسية، يكون الوقت ظهرًا؛ وعندما يكون ثمانية أقدام، يكون الوقت بين الظهر والغروب أو الشروق؛ ولكن في الشتاء يمتد الظل في الظهيرة إلى تسعة أقدام، وهكذا.

للإبحار أو عبور النهر، يتم استخدام قوارب النيل ذات الأحجام المتفاوتة، ولكن هذه لا تكون دائمًا تحت الأمر، وحينذاك يتم استخدام وسائل مختلفة. منها أن يضع رَجُلان أنفسهما على حزمة من الخوص؛ فيمسك الأول في يده ذيل بقرة تسبح أمامه، ويوجه الحيوان بحبل مُثَبَّت على قرنيه، بينما يقود الآخر هذا المركب المؤقت بمجداف. لكن قد لا تتوفر بقرة أو خوصًا، وعندئذ يفي بالغرض لوح خشبي كبير، يركبون على جانبيه، بعد ربط ملابسهم في حزمة على رؤوسهم، ثم يجدفون بأيديهم؛ حتى هذا لا يكون ضروريًّا. وكثيرًا ما يقوم البستاني المتوجه إلى السوق بتثبيت حِمْلِه من البطيخ وغيره من الخضروات بحزم من الخوص، ومن ثم

يدعه يطفو خلفه، بينما هو يسبح في النهر، وهو يسحبه بحبل مربوط بقطعة قماش حول صدره؛ وثيابه على رأسه، كما المثال السابق. وأثناء عبور الجِمال المُحَمَّلَة للنهر، تكون مربوطة مع بعضها في حبل، واحدة في ذيل الأخرى؛ ويسبح أمامها رجل يمسك في فمه لجام الجمل الأول؛ ورجل آخر، يجلس على حزمة من الخوص في المؤخرة، ليرى تتابع البقية بشكل سَليم.

وكذلك المتعاملين مع الجِرَار الفخارية يستغنون عن استخدام القوارب. ولنِقْل هذه الجِرَار من الأماكن التي تُصنع فيها إلى أسفل وادي النيل، حيث القاهرة والدلتا، يتم ربط عدد منها معًا على شكل مثلث، وتوضع مجموعة من أغصان النخيل على سطح هذه العوامة، حيث يجلس مالكها، ويجدف بزوج من المجاديف، أو يندفع مع التيار حتى يصل إلى مكان وجهته؛ ثم يَحِلُّ طوفه، ويتخلص من جِرَاره، ويرجع إلى المنزل بأفضل الطرق ومعه المال، أو معه الضروريات التي قام بشرائها، يحملها على ظهره. وفي بعض الأحيان تكون هذه الطَّوافات أكبر، حيث يقوم اثنين أو ثلاثة بضم سلعهم إلى بعضها؛ وكثيرًا ما يتزود الرجال بشِبَاك، تشبه شباك الصيد لدينا، يصطادون بها الأسماك أثناء عبورهم. وهم بارعون في استخدامها للغاية، حيث يقف رجل عند رأس الطوف المثلث، ويلقي شباكه؛ ولمّا يقوم بسحبها، يقوم رجلان آخران، في الزاويتين المعاكستين بإلقاء شباكهما؛ ويكررون ذلك في وقت مضبوط بانتظام مدهش. يقال أن هناك ألفي رجل يجدون عملاً في حمل المواد وصنع الأواني ونقلها إلى السوق.

هناك أنواع عديدة من الأسماك في هذا النهر، من بينها مجموعة كبيرة ومتنوعة من أسماك الإسبرط Sprat، وهناك عدد قليل غير معروف في أماكن أخرى. بعضها يُعَد طعامًا غاية في الجودة، والبعض الآخر

يستخدم كغذاء فقط من قِبَل عامة الناس، الذين نادرًا ما يتذوقون أي نوع آخر من الأغذية الحيوانية. وفي الواقع، إن العرب مولعون جدًّا بالجراد، الذي يقومون بشيه؛ وأحيانًا تأتي أسراب كبيرة منه إلى القاهرة بسبب الرياح التي تهب من الصحراء.

وعندما يكون لديهم كميات كبيرة، يقومون بسلقها قليلاً، ويجففون الكثير منها على أسطح منازلهم، من أجل حفظها؛ والمتبقي يأكلونه طازجًا مع قليل من الملح. ومع ذلك، فالغذاء الرئيسي لعامة الناس هو نوع من الخبز الكثيف، المصنوع من حبوب الذرة الخشن، وهو نبات من الفصيلة الكلئية Grass Tribe، التي تُنتج إنتاجًا وفيرًا، ولكن بذورها صغيرة، تقريبًا مثل الدُّخن Millet. صحيح أن الفلاح يزرع القمح، لكنه بمثابة ترف لا يذوقه؛ أما الشعير الذي ينمو في حقوله، فهو مخصص لاستخدام الجياد، لكونه غذائها الشائع. ويعتبر تمر النخيل، الشجرة الأكثر شيوعًا في مصر، مادة غذائية أخرى، تعد مفيدة بشكل خاص في الرحلات الطويلة؛ حيث تُدَقُ فاكهتها وتُعْجَن، وتُشَكَّل منها كعكة صلبة كبيرة مجففة. ويتم مزج قطع من هذه - والتي لابد أن تقطع بفأس صغيرة لصلابتها الشديدة - بالماء، كشراب منعش ومغذي. وينمو قصب السكر في مصر، والذي يُصنع منه السكر؛ منه ما هو جيد النوع، لكن أكثره يؤكل أخضرًا، خاصة من قبل عامة الناس والنساء المغرمين به للغاية؛ وفي هذه الحالة، يتم بيعه مربوطًا في حزم صغيرة، في كافة المدن.

من خضروات الطهي الشائعة في مصر، اللبلاب، وهو نبات من البقوليات، كثيرًا ما يشكل تعريشات، حيث يمكن تربيته في أي وضع مثل الفاصوليا الحمراء لدينا. تُزرع كذلك الخبيزة الشائعة لاستخدامات الطبخ، وعادة ما يتم سلقها مع اللحم في مصر السفلى أكثر من أي خضار

آخر؛ وهناك نباتان آخران لهما طبيعة صمغية أكثر، يشبهان الخِطْمِيَّة، يستخدمان كغذاء كذلك.

تزخر حدائق مصر بالفاكهة اللذيذة؛ حيث نجد الموز والقشطة Custard Apple والرمان والبرتقال والليمون والتمر الهندي والعنب والتين والشمام والمشمش والزيتون. إلى جانب بعض الفاكهة الغريبة على البلد، مثل النابيكا Nabeca، التي تنمو على نوع من النبق، وتشبه التفاح الصغير المستدير، وهي لذيذة المذاق عندما لا تكون خضراء أو ناضجة للغاية؛ والدُّوم، وهو نوع من النخيل. ينتجون كذلك نوعًا من السُّعْدَة Cyperus، وهو درنات تنمو بين الجذور تدعى حب العزيز، تشبه الكستناء Chesnut في النكهة، وله اعتبار في بعض الأماكن. وكثيرًا ما تأكل المرضعات هذه الأطعمة لاعتقادهن أنها تزيد من حليبهن.

وكبديل عن المشروبات الكحولية المُسْكِرَة، يُزْرَع في مصر نوع من القُنَّب يُدعى الحشيش، ويعني العُشْب، من قبل صفوة القوم. تطحن ثماره مع غشائها، وتُحَوَّل إلى معجون يتم مزجه بالعسل والفلفل وجوزة الطيب، ويتم تناوله على هيئة قطع بحجم الجوز. أما الفقير فيقتصر على طحن الغشاء في الماء، ويتناول معجونه، أو يأكل الغشاء دون أي تحضير. وفي بعض الأحيان يقومون بطحن الغِشاء، ويمزجون المسحوق بكمية متساوية من التبغ، ويُدَخِّنُون الخليط. ليس ذلك راجعًا لعدم وجود مشروبات مُسْكِرَة لدى المسلم الغني بسبب التحريم الديني، لكن يظل الأمر أكثر تأثيرًا بالنسبة للفقير بسبب عدم قدرته على شرائها؛ لأن المصري يصنع شرابًا من البلح كثيرًا ما يستخلص منه شرابًا كحوليًّا.

تُمارَس جميع الفنون اللازمة لتزويد شعب مصر بكل ما هو ضروري لاستخدامهم فضلاً عن بعض الأشياء الزائدة عن الضرورة؛ على الرغم من أن الحرفي نادرًا ما يكون في مهارة الصانع الأوروبي، أو بالأحرى ربما من

النادر أن يكون مزودًا بأدوات ملائمة لاستعماله. ومع ذلك يبلغ المراد، ويحدث ذلك كثيرًا عن طريق وسائل من شأنها أن تؤدي إلى فشل الأوروبي؛ فحينما تكون اليدين غير كافيتين، يوظف المصري إحدى قدميه بسهولة كطرف ثالث. ويُعَد فن بناء السفن أحد هذه الحالات الجديرة بالملاحظة بشكل خاص. إن الكانجا Canja المتلائمة بشكل جيد مع قطع التيار السريع للنيل بسرعة وأمان، ستكون في خطر وشيك في نهر تتغير فيه ضحالة المياه بشكل مستمر، ولا يكون هناك تدفق للتيار؛ فإذا حدث ودفعت الرياح القوية شراعها الكبير، فستضرب الرمال لو لم يكن هناك ابتكار ذكي. هكذا بدلاً من أن تكون العارضة مستقيمة، كما في السفن الأوروبية، تكون جزءًا من القطع المكافئ؛ بحيث تكون أعمق في الماء في المكان الذي تجتمع فيه بمقدم المركب، الذي يكون مستقيمًا ليس منحنيًا لأعلى؛ ومن ثم يلامس هذا الجزء المياه الضحلة أولاً، وسرعان ما يتوقف في حين أن الجزء الأكبر من المركب لا يزال طافيًا، بحيث يمكن أن تنطلق مرة أخرى دون صعوبة كبيرة. ومن المحتمل أن هذا الابتكار يُنسب إلى المصري القديم المتميز بمهارته في الفنون والعلوم، وقد تم الحفاظ عليه عن طريق العادة أو من الإحساس بفائدته إلى يومنا هذا. هذا هو الاحتمال الأكبر، بما أن أشكال بعض المراكب في الكهوف القديمة تشبه إلى حد كبير الكانجا الحديثة، عدا أن القمرة تبدو أعلى قليلاً؛ إذ أن لديها شراعًا مربعًا، استُبدل به الشراع اللاتيني الذي يمكن افتراض أنه يُعزى إلى الرومان؛ ويتم قيادتها عن طريق عجلة قيادة، ليس في الواقع كما نفعل، لأنه يبدو أن العجلة قد تم تثبيتها في نهاية المؤخرة كمحور، وأن ترتكز في دورانها على سطح السفينة. ولكن أيًّا كان المبتكِر، فهل لنا نحن أن نستخدمها في السفن التي تستكشف البحار المجهولة، أو التي تتعرض على الدوام لخطر تلك الصخور المرجانية الكامنة تحت سطح الماء، جاعلة الملاحة محفوفة بالمخاطر؟

بعد أن تطرقنا باختصار إلى الخصائص والعادات المصرية، سنختتم هذا العنوان بإلقاء الضوء على ملابس سكانها.

يتميز البك المصري بعمامة عالية جدًّا، يتم تكبير الجزء العلوي منها بقطعة قماش برتقالية اللون تدور حولها، وتتقاطع العصابة الطويلة من الموصلين بشكل مائل عبر رباط من خيوط ذهبية. أما رداؤه فمن الحرير والقطن، مطرز بالذهب والفضة؛ وقفطانه من نفس المواد، ولكن بلون ونمط مختلف؛ وفوق هذا معطف من الفرو أو السمور، يُشكِّل وشاحه شال هندي؛ والبنيش[1] قرمزي اللون، مزين بستة مشابك ذهبية؛ وسرواله يصل إلى حذائه، مصنوع من أرقى أنواع القماش القرمزي. والحذاء يرتدي منه زوجان؛ أحدهما لخارج المنزل يخلعه عند الباب لدى دخوله ويكون من الجلد الأصفر؛ والذي يرتديه في الداخل يكون بشكل عام من جلد مماثل، لكن في بعض الأحيان يكون من القماش أو الحرير. (لوحة ٤٠). أما المماليك الذين تحدثنا عنهم فليس لديهم لفة ذهبية حول عمائمهم.

اللباس هو محط اهتمام كبير بين السيدات اللواتي يكون أزواجهن في أقل درجات الثراء. وفيما يلي وصف لزوجة أحد التجار في القاهرة. على رأسها تضع غطاءً مستديرًا مثل الطبق، مغطى بشال هندي، يُخفي الشعر بكامله من الأمام، تظهر فقط بعض الخصلات عند الصدغ. والشعر من الخلف مضفر بجديلة ذهبية، يصل إلى الظهر ومثبت إليه حلي ذهبية مختلفة. ترتدي حول ذراعيها أساور ذهبية. وترتدي قميص جميل من الحرير والقطن له أكمام مخططة. وثوب من الحرير مطرز بالذهب والفضة، يصل إلى القدمين بأكمام كبيرة. وتتمنطق بشال هندي حول الخصر. وجُبَّة من

---

(١) "البنيش" يتم ارتداؤه فوق الرداء الخارجي عوضًا عن "الجُبَّة" أو "الجبَّة"، كما يُطلق عليها في اللغة الدارجة، وهو عادة أفخم منها، لذا يغلب استخدامه في المناسبات، انظر: لين، عادات المصريين المحدثين: ٤٢ -٤٣ (المترجم).

الحرير الملون المبطن بالفراء، تصل إلى منتصف الساق. وسروال حريري ذي لون فاتح صارخ. والأحذية المنزلية من الحرير المطرز بالذهب، والخارجية نفس الأمر. أما عبدها فيرتدي عادة قميصًا من الحرير والقطن؛ وثوب قصير جدًّا، مع وشاح من الموصلين الشائع صناعة وشكلاً؛ وسروال مخطط. (لوحة ٤١).

من بين وسائل التسلية في مصر، فضلاً عن البلدان الأوروبية الأكثر تثقيفًا، تحتل عروض الرقصات الشعبية مكانة هامة. ترتدي المؤديات في هذه المناسبات عصابة من الحرير الأسود تغطي نصف جبينها، وتخفي كامل الشعر من الأمام؛ و يلتف حول الرأس أعلى الأذنين منديل من القطن الأصفر، عليه أشكال زهور وخطوط من ألوان مختلفة؛ والشعر يتدلى إلى الخلف، متداخلاً مع شرائط حمراء طويلة، تزينها حلي مختلفة من الفضة. وترتدي قميصًا من القطن غاية في الطول، مخططًا بحرير رفيع؛ وثوبًا قصيرًا من مواد مماثلة، بأكمام تصل فقط إلى منتصف الذراعين، مخططًا عند الأركان بالحرير الملون؛ ونطاقًا عريضًا من الحرير الملون، مهدَّبًا أهدابًا مزينة بقطع صغيرة من العملات الفضية؛ وسروالاً من القطن المخطط، يصل إلى الأرض تقريبًا. ويرتدين كذلك خواتم في الأصابع، وأساور حول المعصم وقلادة. ولإكمال زينتهن، يتم وسم الوجه والصدر وظاهر اليدين بنقط ونجوم وأشكال أخرى باللون الأسود. (لوحة ٤٢).

أما ثوب الفلاحات فيتكون من منديل أبيض ملفوف حول الرأس ومربوط من الخلف؛ وعصابة من الحرير الأسود تصل إلى الجبهة؛ ونقاب مثلث الشكل من الحرير الأسود، مثبت إلى الخلف من طرفين من أطرافه، ويُمنع من الانزلاق عن طريق شريط يمر فوق الجبهة؛ وقميص فضفاض للغاية من القطن الأزرق، يصل إلى القدمين، بأكمام كبيرة. ويرتدي الرجل طاقية من القماش الأحمر، تدور حولها عصابة من القطن الأبيض

لتشكل العمامة؛ وقميص من القطن الضارب إلى الصفرة، لا يصل إلى الركبتين، ووشاح من القماش الأحمر.

والملابس البدوية عبارة عن قميص من الصوف الخشن، يتم ربطه عادة حول الخصر بحزام من الصوف الأحمر أو الأزرق؛ ونوع من العباءة التي تلتف حول الرأس، وتنسدل إلى منتصف الساق. هذا الثوب مشترك لكلا الجنسين، ولكن عباءة المرأة أطول إلى حد ما، ومطوقة بحزام؛ ولديها عادة قطعة قماش تمر فوق الجبين، ومربوطة تحت الذقن. يحمل الرجلُ المؤنَ في سلة مطروحة على ظهره، أو محمولة بذراعه، يتم ربطها بخيط يمر حول الرأس، والنساء عادة تحمل طفلاً. ويرتدي شيخ القبيلة طاقية من القماش الأحمر؛ وعمامة كبيرة من الموصلين الأبيض الخشن؛ وثوب داخلي من الحرير والقطن، يكون أبيضًا بخطوط ملونة؛ وقفطان، أو ثوب ثان، أطول بعض الشيء، يكون من نفس المواد لكن بلون مختلف، مرفوع من الجوانب إلى وشاح، يكون عادة شال ملون أو مزخرف، هندي الصنع؛ وسروال من القطن الأبيض الخشن؛ ونعل من الجلد الأصفر، معقوف من الأمام؛ وشال أبيض كبير أو ملون على الكتفين؛ والبنيش، أو الثوب الخارجي، من القماش العادي، بأكمام طويلة، ويتم ارتداؤه فقط عند الخروج. (لوحات ٣٦، ٤٣، ٤٤).

التـاريـــخ

تاريخ مصر القديم، مثله مثل الخاص بغيرها من البلدان، يبدأ بأسطورة تفسح المجال تدريجيًا لروايات يمكن الاعتماد عليها بدرجة أكبر كلما اقتربنا من العصور المتأخرة. بعض تفاصيل الأجزاء الأكثر أهمية قد تم إيجازها في وصف الإسكندرية. ولا نعتقد أنه من الضروري هنا الدخول إلى ما تم طرحه مِن قِبَل جميع من كَتب حول هذا الموضوع؛ نظرًا لأن الأحداث التي حدثت مؤخرًا، والتي لم يتم نشر أي وجهة نظر متعلقة بها حتى الآن، من المحتمل أن تكون أكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لغالبية القُرَّاء. وقد لاحظنا بالفعل أن سلطة السلطان في مصر لا تعدو أن تكون ظلاً؛ فبعض البكوات الأقوياء -باعتبارهم في الواقع لديهم سيادة مؤقتة -يمتثلون أو يستخفون بأوامر سيدهم الأعلى بما يلائم أهدافهم الخاصة، فضلاً عن الاستبداد بشعب بائس مضطهد دون خوف أو مراقبة.

هكذا كانت حالة مصر عندما اندلعت الثورة الفرنسية، التي أشعلت لهيب الحرب على نطاق واسع؛ غير أن أحداث هذه الحرب خارجة هنا عن إطار اهتمامنا إلى أن صار غزو مصر هدفًا لرجل برز بوصفه كفءً لأكثر المشاريع جسارة؛ وأثبت من خلال نجاحاته مدى ما يمكن أن يحققه الاندفاع الحازم، عندما يسترشد بالذكاء الحاد وواسع الإدراك.

بعد عرض عسكري فارغ يهدد بغزو الجزر البريطانية، انطلق أحد أجنحة جيش إنجلترا - كما أُطلق عليه بتفاخر -من طولون Toulon. وفي التاسع عشر من مايو عام ١٧٩٨م، أبحرت مائة وأربعة وتسعون سفينة من هذا الميناء، تحمل تسعة عشر ألف جندي، إلى جانب ألفي من العلماء والفنانين والأدباء. اتخذوا مسارهم في البحر المتوسط، وقاموا بالاستيلاء في طريقهم على مالطة. وفي الأول من يوليو باشروا الطريق إلى الإسكندرية،

وفي نفس المساء هبط إليها ثلاثون ألف جندي قوي[١]. وفي الليل وصلوا إلى المدينة؛ وعند الفجر بدأ الهجوم دون انتظار هبوط المدفعية. عمل الجنرال كليبر Kleber على تسلق الأسوار المجاورة لعمود بومبي[٢]؛ وعمل الجنرال بون Bon على اقتحام باب رشيد[٣]؛ أما الجنرال مينو Menou، فعمل على حصار الحصن المثلث Triangular Castle[٤] بجزء من كتيبته، بينما ذهب مع البقية لتطويق جزء آخر استطاع اقتحامه، فكان أول من دخل المدينة. وعندما كان الجنرال كليبر أسفل الأسوار، يشير إلى المكان الذي يريد أن يعتليه الرماة، أصابت جبينه قذيفة طرحته أرضًا؛ لكن لم يكن مُقَدَّرًا له الموت في ميدان المعركة. دخلت الفرق الثلاثة كلها إلى المكان، وفر المدافِعون للجوء إلى الحصن المثلث، وفاروس Pharos، والمدينة الجديدة. حتى المنازل تم الدفاع عنها؛ لكن قبل نهاية اليوم هدأت المدينة، وتم السيطرة على الإسكندرية.

---

(١) أخطأ المؤلف في هذا الرقم، لأن الحملة كلها كانت تقتصر على تسعة عشر ألف جندي، والرقم الصحيح هنا – تبعًا للمصادر - ثلاثة آلاف جندي، انظر: لوبير، "دراسة عن مدينة الإسكندرية": ٢٨٠ (المترجم).

(٢) الأسوار الجنوبية للمدينة، المجاورة لـ"باب سِدْرَة" المندثر، أو ما أُطلق عليه في ذلك الوقت "باب العَمُود"، انظر: شكل (١٣)؛ السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢م): ٤٤٨؛ حسام عبد الباسط، **وصف الإسكندرية** (الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٨م): ١٥٥ -١٥٧ (المترجم).

(٣) كان يقع في السور الشرقي للمدينة، وعُرف كذلك بباب القاهرة لأنه يعد الباب الرئيسي الذي يدخل منه القادم من القاهرة، وكان يعبر منه سلاطين المماليك عند زيارتهم للثغر، وظل هذا الباب قائمًا حتى بدأت جدرانه في التصدع عام ١٨٨٢م، واختفت معالم الباب تمامًا عام ١٨٨٥م، لكن ظل قسم من السور المتصل به موجود في حدائق الشلالات الحالية، انظر: شكل (٤٥)؛ عبد العزيز سالم، **تاريخ الإسكندرية**: ٤٤٤ -٤٤٦ (المترجم).

(٤) ذكر لوبير أنه حصن مثلث الشكل، يسمى "حصن باب القرافة"، كان يقع عند الزاوية الناتئة إلى الخارج المدينة، جنوب غربي السور، وقد دُمِّر كلية أواخر عام ١٨٠١م، بسبب النيران التي نشبت بمخزن البارود، انظر: لوبير، "**دراسة عن مدينة الإسكندرية**": ٣٠٤ (المترجم).

تَجمَّع العرب في الصحراء مُشكِّلين قوات من الفرسان قامت بالتحرش بأطراف الجيش، وهجمت على أطرافه؛ لكن لم يمر وقتًا طويلاً إلا وكان بونابرت قد عقد معهم معاهدة صداقة. أراد الجنرال الفرنسي -إن أمكن - منع معارضة خططه من قبل قوات الباب العالي، عن طريق وضع الراية العثمانية جنبًا إلى جنب مع العلم ذي الثلاثة ألوان على أسوار الإسكندرية. وزعم أن غرضه الوحيد هو عقاب المماليك الذين تعرضوا للتجار الفرنسيين؛ وإعادة سيادة مصر -التي استحوذ عليها البكوات فعليًّا لفترة طويلة - إلى السلطان(١). وقام بإرسال رسالة بهذا الشأن إلى الباشا في القاهرة. وعقد اتفاقية مع المفتي وكبار الشيوخ في الإسكندرية، تعهد من خلالها بعدم التدخل في القوانين أو الدين أو مؤسسات البلاد. وقبل أن يغادر الإسكندرية، أمر بجثامين الجنود الفرنسيين الذين سقطوا هناك، والبالغ عددها حوالي مائة وخمسين، أن يتم دفنها أسفل عمود بومبي، وأن يتم تسجيل أسماءهم على قاعدته.

بعد مَنْح توجيهاته بوضع ميناء ومدينة الإسكندرية في حالة دفاع مناسبة، وتنظيم حكومة مؤقتة، انطلق بونابرت إلى القاهرة، التي اعتبر أن الوصول إليها دون إهدار مزيد وقت أمر ضروري. بدأ سيره عن طريق دمنهور بالجزء الرئيسي من الجيش مساء يوم السابع من يوليو؛ وسبقه الجنرال ديزيه Desaix بكتيبته في الرابع من الشهر؛ وأُصدرت الأوامر في يوم

---

(١) فعل ذلك لكسب تعاطف المصريين، لعلمه التام بولائهم للسلطان العثماني؛ وقد جاء في المنشور الذي أذاعه على المصريين: "الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين لحضرة السلطان العثملي وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، وبالمقلوب المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا إلا لطمع أنفسهم"، انظر: عزت حسن أفندي الدارندلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني**: مخطوطة ضيانامه للدارندلي، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م): ١٣٩ -١٤٠ (المترجم).

الخامس لكتيبة الجنرال كليبر، بالاستيلاء على رشيد وترك حامية هناك، والتقدم على الضفة اليسرى لنهر النيل. ومع انزعاجهم من شدة الحرارة في مسيرتهم الاضطرارية عبر صحراء رملية، فضلاً عن التحرش المستمر بمؤخرتهم من قبل العرب، وصلوا إلى دمنهور في الثامن من الشهر. وبعد استراحة لمدة يوم، واصلوا المسير تجاه الرحمانية. وفي منتصف الطريق إلى ذلك المكان هوجمت كتيبة الجنرال ديزيه من قبل ستة آلاف مملوك؛ لكن المدفعية الفرنسية، فضلاً عن مزايا الانضباط، سرعان ما أجبرهم على التراجع.

في غضون ذلك، انتظر مراد بك الفرنسيينَ في قرية شبراخيت على رأس جيشه الكثيف من الفرسان، وسَبْع زوارق حربية في النيل، على متنها تسعة وعشرين أو ستة وثلاثين مدفعًا. وفي فجر يوم الثالث عشر، كان الجيشان الخصمان على مرأى من بعضهما البعض. كان بونابرت قد أمر الأسطول الفرنسي أن يتابع تحركات الجيش، وينهك ميمنة العدو بواسطة القذف النشط للمدفعية. وبتشكيل قواته على هيئة متوازي أضلاع بأمتعتهم في المركز، يمشون مشية عرجاء؛ ووضعهم في أقسام، تنتظم بانتظام الخطوات، بحيث يحيط القسم بالآخر، مع قِطَعِهم الميدانية المتمركزة في كل جانب(١)؛ لم يجد المماليك نقطة ضعف ينفذون من خلالها، محاولين

---

(١) كان النمساويون والروس قد طوروا هذا النوع من التشكيل في حروبهم ضد العثمانيين في مستهل القرن الثامن عشر، لمواجهة سلاح الفرسان العثماني المماثل لسلاح فرسان المماليك؛ والجيش الفرنسي يعرف هذه المناورة لأنها مقررة منذ عام ١٧٧٦م، لكنه لم يمارسها قط من قبل، وتعد الابتكار العسكري الكبير للحملة، وفيها تتخذ الفرق الخمس شكل مربعات أو متوازيات أضلاع، يتم داخلها حماية معدات الفرق والقليل من سلاح الفرسان، وعلى الزوايا يجري توزيع قطع المدفعية، ويجري توزيع القوات بشكل يسمح بتغطية إحداها للأخرى، انظر: هنري لورنس وآخرون، **الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والإسلام**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٥م): ١٤٥ -١٤٦ (المترجم).

الهجوم عدة مرات دون جدوى. وبعد أن قضوا أغلب اليوم في قصف مدفعي جزئي من جانب الفرنسيين، تراجعوا مع فقد ما يقرب من ثلاثمائة رجل. وانسحب كذلك الأسطول التابع لمراد، تاركًا وراءه ثلاث سفن فرنسية جانحة، قاموا بالاستيلاء عليها ونَهْبِها في بداية المعركة.

واصل الفرنسيون زحفهم، في ظل الفاقة والاحتياج لكل شيء تقريبًا، تحرقهم الحرارة المفرطة، حتى العشرين من يوليو. في صباح هذا اليوم رأوا الأهرامات، وفي المساء كانوا على بعد خمسة عشر ميلاً من القاهرة. وهاهنا أدركوا أن ثلاثة وعشرين بك قد تمركزوا بجميع قواتهم في إمبابة، تلك القرية المقابلة لبولاق، وحَصَّنوا مراكزهم بخمسين قطعة مدفعية. وفي اليوم الحادي والعشرين عند انبلاج الفجر، أوقعوا بالحرس المتقدم للمماليك، واقتادوهم من قرية إلى قرية، حتى الثانية ظهرًا، عندما وصلوا بالقرب من تحصيناتهم. وبنفس تنظيم المعركة التي وقعت يوم الثالث عشر، اتخذت كتيبتي الجنرال ديزيه وريجنيه Regnier موقعًا على اليمين بين جيرالو Giralo وإمبابة، وذلك لقطع أي اتصال للمماليك بصعيد مصر، حيث يمكنهم الانسحاب بطبيعة الحال إذا تمت هزيمتهم؛ وشكلت كتيبة الجنرال كليبر مركز الجيش؛ وشكلت تلك الخاصة بالجنرال بون، الجناح الأيسر، الذي كان مُؤمَّنًا من جانبه بالنيل.

فور عِلم مراد بك بتحركات الجنرال ديزيه، قرر مهاجمته، وبعث لهذا الغرض واحدًا من أكثر بكواته عزمًا، مع مجموعة مختارة من الفرسان، هرعوا بسرعة البرق على الكتيبتين. لقد عانوا من الاقتراب على بُعْد مائة ياردة دون التحام، عندما تم سكب وابل من القذائف الكبيرة والصغيرة عليهم، ما أوقع دمارًا واسعًا؛ وعندما ألقوا أنفسهم في المساحة الفاصلة بين الكتيبتين، استقبلهم نيران متقاطعة أكملت هزيمتهم. وبينما كان هذا المرور يحدث من على اليمين، هاجمت كتيبة مينو وبون التحصينات في

إمبابة. تقدم الجنرال رامبون Rampon على رأس الصفوف الهجومية، باندفاع رغم القصف المدفعي. وقام المماليك كذلك بهجوم قوي من تحصيناتهم، مندفعين منها بأقصى سرعة؛ لكن كان لدى الصفوف الفرنسية وقتًا لتشكيل جبهة على كل جانب، واستقبالهم بالحراب، بعد الإطلاق العام للنار من البنادق؛ فسقطوا قتلى بكثافة في ساحة المعركة، وسرعان ما قام الفرنسيون بالإطباق على التحصينات. استحث المماليك المرتبكين فرارهم في حشد نحو اليسار، حيث سقط الكثير من قذائف ضاربي القربينات، التي اضطروا تحت وطأتها إلى المرور على مسافة خمسمائة خطوة، والكثير تم دفعهم إلى النيل حيث سقطوا غرقى. في هذه المعركة فقد المماليك سبعمائة أو ثمانمائة من القتلى والجرحى، من بينهم عدة بكوات؛ وتلقى قائدهم مراد إصابة في وجنته؛ وسقط أكثر من أربعمائة جمل محملاً بالأمتعة وخمسين قطعة من المدفعية في أيدي الفرنسيين، الذين سقط منهم نحو مائتي رجل بين قتيل وجريح.

على إثر تلقي الجيش المملوكي هذه الهزيمة، قاموا بإخلاء القاهرة في الليل، بعد حرق الجزء الأكبر من سفنهم الحربية؛ وفي الثاني والعشرين من يوليو استولى الفرنسيون على العاصمة المصرية. وفي نفس الوقت، لكبح قوات مراد، باشر بونابرت بتشكيل معسكر محصن أعلى النيل على مسافة عشرة أميال من القاهرة. وبينما تقدم الفرنسيون هكذا عن طريق البر، كان الأسطول الذي نقلهم إلى مصر يرسو في خليج أبي قير تحت قيادة الأدميرال برويه. ولتوقعه هجومًا من الإنجليز، وضع الأدميرال الفرنسي سفنه على شكل صف بالقرب من الشاطئ، حيث كان يعتقد أنه يمكن أن يغامر بالسلامة، ويَحُول -كما كان يأمل – بين الإنجليز وبين البر؛ لكنه كان مخطئًا في ذلك. ففي الأول من أغسطس، وصل اللورد نيلسون إلى الخليج، وبواحدة من تلك المناورات العلمية الجريئة التي تُميز البحارة البريطانيين، استطاع الجري بين الخط الفرنسي والشاطئ

بنصف أسطوله، لوضع مقدمة الفرنسي بين نارين. وبعد تطويق الفرنسيين، دافعوا عن أنفسهم ببسالة كبيرة. وفي الخامسة والنصف بعد الظهر بدأ الهجوم؛ وفي حوالي التاسعة والربع بدأت سفينة الأدميرال، الشرق L'Orient ذات المائة وعشرين مدفعًا، في الاشتعال؛ وفي الساعة العاشرة انفجرت؛ وقد حافظ الشجاع برويه على مركزه في مؤخر السفينة رغم تلقيه ثلاثة جروح شديدة، قبل أن ينشطر إلى نصفين بواسطة إحدى الشظايا. وبينما كان الإنجليز يُخمدون النيران من السفن الأولى، انتقلوا إلى تلك الموجودة في المؤخرة، وهكذا استمر العمل حتى بعد ظهر اليوم التالي، في حين كانت هناك سفينتين خَطِّيَّتين فرنسيتين، وفرقاطتين، لم تصب بعد، قامت بقطع مراسيها وخرجت إلى البحر. هذه السفن فقط هي التي هربت، وواحدة فقط من السفن الإنجليزية هي التي قامت بملاحقتها. تم أخذ ستة سفن خَطِّية، واحدة استمرت على الشاطئ وأحرقت من قِبل قبودانها، وثلاثة أخرى أحرقت من قبل الإنجليز، اثنان منها سبق وأن جنحتا خلال المعركة، وفرقاطة واحدة أحرقت كذلك، وأخرى غرقت. وقد تألف الأسطول الفرنسي في هذه المعركة من ثلاثة عشر سفينة خطية وأربعة فرقاطات، عليها ألف ومائة وتسعين مدفعًا، تدعمها بطاريات المدافع والمورتر Mortars من على الشاطئ، مع عدة زوارق حربية على الأجنحة؛ وكان الأسطول الإنجليزي بالمثل يتكون من ثلاثة عشر سفينة خطية، جنحت واحدة منها يمكن ألا يكون لها أهمية في المعركة، وسفينة من نوع الخمسين مدفعًا Fifty Gun Ship، وسفينة من نوع بريجا A Brig تحمل في مجملها ألف وستة وعشرين مدفعًا.

هذا التدمير لأسطولهم قطع كل أمل للفرنسيين في التراجع، وكذلك أي توقع لوصول تعزيزات أو إمدادات؛ وبالتالي لم يتبق لهم أمل في السلامة سوى من خلال النصر، والاعتماد فقط على مواردهم الخاصة. وعندما مكث بونابرت وقتًا كافيًا في القاهرة لترتيب الأمور واتخاذ الاحتياطات

التي رأي أنها ضرورية لتأمين سيطرته، شرع في زحفه لإكمال غزو مصر، وإخراج إبراهيم باشا -الذي كان قد فر بجيشه إلى الشام -من البلاد بشكل كامل. وفي السابع من أغسطس غادر بجيش مكون من ثلاثة أقسام مختلفة من قواته؛ وبعد مسيرة اضطرارية مدتها أربع ساعات، وصل الحرس المتقدم إلى الصلاحية، عندما أسرع إبراهيم لدى تلقي أنباء اقترابهم. تعرض حرس مؤخرته لهجوم من قبل مجموعة صغيرة من الفرسان والجنود الفرنسيين؛ لكنهم كانوا قلة لإحداث أي تأثير عليهم. تم تعقب إبراهيم في الصحراء، حيث تخلى عن مدفعين كانا نافعين في الخدمة، وبعض الخيول المتعبة المحملة بالخيام؛ وبالقرب من بلبيس انتشل الفرنسيون جزءًا من قافلة مكة التي كان العرب ينقلونها إلى الصحراء.

بينما كان بونابرت يُنظم حُكْم مصر، ويؤسس مجمع للعلوم والفنون في عاصمتها، باعتباره وسط بلد يتمتع بالسلام العميق، أرسل العميد فيجريس Fuguieres بكتيبة إلى المحلة الكبرى، عاصمة الغربية، حيث اضطر لمواصلة الصراع لمدة ساعة، قبل أن يتمكن من الدخول إلى القرية. وفي الجَمَّالية أيضًا، هوجمت كتيبة بقيادة الجنرال داماس Damas من قبل جماعة من العرب، لكنهم سرعان ما تفرقوا. وفي الوقت نفسه، قام عرب سنباط، معتقدين بمناعة قريتهم بسبب إحاطتها بمياه الفيضان، بالإغارة على النيل بالسلب والنهب. سار الجنرالين مورا Murat ولاسني Lasne إلى هناك، حيث وصلا في الثامن والعشرين من سبتمبر، وبعد بضعة قذائف تفرق العرب، فتمت مطاردتهم لمسافة اثني عشر ميلاً إلى وسط الماء، فوقعت خيولهم وجمالهم ومتاعهم في أيدي الفرنسيين، وسقط حوالي مائتين بين قتيل وجريح.

في غضون ذلك غادر ديزيه القاهرة، وانطلق إلى أعلى نهر النيل بمركبتين نصف جالي Half-Galleys وستة قوارب إشعار Advice-Boats. وعند الفيوم، على ترعة بحر يوسف، وقع في يديه أربعة عشر

قاربًا، محملة بالأمتعة والخيام وأربعة مدافع، تنتمي إلى مراد بك. وواصل مسيره على بعد مائتي وخمسين ميلاً من القاهرة، وراء أسطول البك الصغير، الذي لجأ في النهاية إلى جوار الشلالات، ومن ثم أُوقفت المطاردة. وفي طريق عودته قام بالعديد من المناوشات في فيلميسي، كانت مقدمة لما حدث في سيدمنت. ففي السابع من أكتوبر، مع انبلاج اليوم، وصل على مرأى من جيش مراد بك المكون من ستة أو سبعة آلاف فارس ومجموعة من المشاة، والذي كان يدافع عن التحصينات في سيدمنت بأربعة مدافع. لم يتردد المماليك في بدء الهجوم، فاستقبلهم الفرنسيون بفتور كبير. لم يُطلق جنود أول عشرين فرقة Demibrigade النار إلا عندما وصل أعداؤهم على مسافة عشرين ياردة، ومن ثم اندفعوا إليهم بالحراب الثابتة. سقط الكثير من شجعان المماليك قتلى بين الصفوف الفرنسية، بعد أن قاموا بالرمي بواسطة القضبان وفؤوس القتال والبنادق والطبنجات، على رؤوس أعدائهم؛ حتى أنهم نزلوا من على خيولهم لتجنب الحراب، وقطعوا أرجل الجنود الفرنسيين. لكن شجاعتهم كانت بلا جدوى، فقد اضطروا إلى الفرار في النهاية؛ حيث استطاع الفرنسيون الهجوم والسيطرة على التحصينات. أصيب اثنان من البكوات المصاحبين لمراد؛ وتُرك ثلاثة في ميدان المعركة مع أربعمائة من أشجع قواته؛ في حين كانت خسارة الفرنسيين تافهة.

وبينما كانت حالة البلاد بهذا الشكل، لم تستقر القاهرة نفسها ولم تخضع للهدوء. كان بونابرت على عِلم بأن السكان كانوا يتآمرون سرًا للتخلص من نير الغزاة الجدد، واعتبر أن من ضروريات الأمن تسليح كل أوروبي موجود في العاصمة. وقد تم ذلك في بداية شهر أكتوبر، لكنه لم يوقف تنامي الثورة. وفي صباح يوم الحادي والعشرين، توجه الجنرال دبويه

Dupuis الذي أوكلت إليه قيادة المدينة، إلى حشد يتجمع في الجامع الكبير[١]. وكان السبب في هذا الجمع المضطرب، جور الضرائب المفروضة. ولدى حضوره هناك مع اثني عشر فارسًا حاول الجنرال دبويه تفريق الغوغاء بالقوة. قُتل بعض رجاله في النزاع؛ أما البقية فقاموا بحمله إلى بيته وهو مصاب بجروح قاتلة في مكانين، حيث توفي بعد ساعتين. كانت هذه إشارة لتمرد عام. هرع الأتراك[٢] على الفور في حشود إلى الجامع الكبير، حيث حصنوا أنفسهم، مسلحين بالرماح والعصي وعدد قليل من الأسلحة النارية. لكنهم لم يتجمعوا هنا فقط؛ فكل مسجد صار عبارة عن حصن أعدته الحشود للدفاع، أو الانطلاق منه للهجوم، حسب ما تقتضيه الفرصة. ضربت الطبول الفرنسية داعية للقتال، وسارع كل جندي للانضمام إلى الفرقة التي وقعت في طريقه. أصدر بونابرت أوامره لإحدى الكتائب أن تتقدم إلى الجامع الكبير؛ الذي أدى سقوط بضعة قذائف بداخله إلى ارتباك ورعب كبير. وتوجهت كتائب أخرى إلى أجزاء مختلفة من المدينة حيث تجمعت الحشود، التي سرعان ما اندفعت جميعها إلى المساجد بحثًا عن ملجأ؛ لكنهم لم يجدوا أي حماية هناك. لم يتردد الفرنسيون -مع كل التوقير الذي زعموه لدين محمد - في اقتحام أبواب المساجد، التي تحولت آنذاك إلى قلاع، وغَمْر أرصفتها بالدماء. وعلى الرغم من هزيمتهم على هذا النحو، إلا أن المتمردين لم يتم إخضاعهم؛ ففي ظل انعدام الرحمة الذي توقعوه، نجحت أعداد كبيرة في الإحلال محل القتلى، منخرطين مثلهم في أعمال متهورة وغير ناجحة.

---

(١) المقصود هو "الجامع الأزهر" (المترجم).

(٢) لفظ "أتراك" هنا مقصود به عموم المسلمين وليس الجنس التركي تحديدًا؛ فقد شاع لدى الأوروبيين إطلاق كلمة تركي على أي مسلم، أيًّا كان جنسه أو لغته، منذ سيطرة الأتراك العثمانيين على الشرق الأدنى في مستهل القرن السادس عشر، وبعد أن أصبحت دولتهم ممثلة للإسلام وحامية لحدوده والمنتسبين إليه (المترجم).

كان يومًا داميًا، لكن المَشاهد التالية كانت أكثر دموية؛ إذ قُتل على الفور أي شخص شوهد مسلحًا بعصى أو هراوة. والأتراك من جانبهم قاموا باغتيال العديد من الفرنسيين الذين تواجدوا بمفردهم في الشوارع. وفي اليوم الثالث والعشرين كانت العلامات الدالة على نفس مشاعر الاستياء لا تزال غالبة؛ لكن في المساء بدأ يعود الهدوء. في هذه الحادثة تم إحصاء خمسة أو ستة آلاف تركي قتيل. ومن الفرنسيين سقط مائة على الأقل، إلى جانب أعداد الجرحى، بسبب الحجارة الكبيرة التي ألقيت من قمم المنازل بشكل أساسي.

على الرغم من أن الخطر الذي هدد الفرنسيين في العاصمة المصرية قد تم سحقه، إلا أن بونابرت كان يدرك جيدًا أنه كان لديه جوانب خطيرة أخرى عليه مواجهتها. فقد فر إبراهيم بك نحو غزة، بصحبة مجموعة من المماليك؛ حيث رَحَّب به جزار، باشا عكا، الذي كان يتخذ ترتيبات معادية على الحدود الشرقية لمصر. مع هذا كان من المتوقع أن يحدث هجوم على مصر عن طريق البحر من قِبَل الباب العالي، بمساعدة من الإنجليز. ومن أجل إحباط هذه المخططات، قرر بونابرت أن يسير دون تأخير إلى الشام، وأن يهاجم جزار قبل أن يتاح له الوقت الذي يستطيع فيه جمع كل قواته. وبهذا سينشر إرهاب أسلحته -المنتصرة بالفعل في مصر - في جميع أنحاء الأقاليم العثمانية في آسيا. وربما يضيف نجاحًا إلى قوته عن طريق اتخاذ حلفاء؛ وربما يتم تمكينه من إملاء شروطه الخاصة على السلطان تحت أسوار القسطنطينية، وجعل حتى فيينا ترتعد. لكن قبل ذلك، رأى أنه من الضروري الاستيلاء على السويس؛ حيث عَلِمَ أن جزار قد تم تنصيبه باشا لمصر ودمشق، وأنه بصدد جمع قواته، وأن جزءًا منها كان بالفعل بجوار العريش، ولا يبعد سوى مسيرة يوم واحد من حدود الصحراء. وبعد أن عاد بونابرت إلى القاهرة، وعين قادة لتلك المدينة، فضلاً عن الإسكندرية ودمياط، وأصدر التوجيهات التي رأى أنها ضرورية، بدأ زحفه

إلى الشام. وفي التاسع من فبراير ١٧٩٩م، وصل الجنرال ريجنيه مع فرقته إلى العريش التي وجدها محتلة من قبل ألفين من قوات جزار. تم الاستيلاء على القرية عن طريق الاقتحام، وتمت محاصرة الحصن الذي تحصن به عدد كبير. وقد وصلت تعزيزات مختلفة من المشاة والفرسان المسلمين مع قافلة مؤن قرب المكان. وفي اليوم الرابع عشر تقدموا بجرأة، وعسكروا أمام الحصن، تحت إحدى القواعد، ودافعوا من خلف خندق عميق جدًّا، معتقدين أنهم في مأمن. وبعد أن وصل الجنرال كليبر بمزيد من القوات، أبلغه الجنرال ريجنيه بخطة سيفاجئ بها المماليك في الليل، فما كان من كليبر إلا أن وافق عليها. وفقًا لذلك، في ليلة الرابع عشر، قامت جزء من كتيبة ريجنيه بقلب الخندق الذي يحمي معسكرهم، وأغارت عليهم على حين غِرة، وقتلت أعدادًا كبيرة، وأجبرت الباقي على الفرار، آخذة بعضًا من الخيل وكل مؤنهم وذخيرتهم وأمتعتهم. وصل بونابرت في يوم السابع عشر؛ وتم قصف أحد الأبراج بالمدفعية ما أدى إلى إحداث خرق؛ ومن ثم دُعِيت الحامية للاستسلام. في يوم العشرين تم التوقيع على الاستسلام، وخرج ألف وستمائة رجل بأسلحتهم وأمتعتهم، على شرط الذهاب إلى بغداد على طريق الصحراء.

إن الدخول في تفاصيل الحملة على الشام بعيدًا عن موضوعنا ويكفينا أن نشير إلى أن الفرنسيين لم يعترضهم عارض حتى وصولهم إلى عكا في العشرين من مارس، قبيل المكان الذي شقوا فيه خنادقهم على مسافة ثلاثمائة ياردة. وهنا قُدِّرَ لبونابرت اكتشاف أن قوته يمكن مقاومتها. ستون يومًا كانت الخنادق تُشَق فيها أمام المدينة. وخلال تلك الجهود غير العادية التي بذلتها الشجاعة غير المجدية التي قام بها المحاصِرون؛ كان العناد والمثابرة لهجماتهم المتكررة تُظهِر بشكل كاف تلك الأهمية التي يُعَلِّقُها القائد الأعلى على نجاح هذه الحملة. ومن حسن حظ الأتراك أنهم تلقوا مساعدة في دفاعهم من مفرزة من الأطقم الباسلة لأسطول إنجليزي

صغير، تحت قيادة السير وليام سيدني سميث William Sidney Smith الذي يمكن أن يعزى إلى شجاعته وقدراته حماية ذلك المكان[(١)].

بعد أن أُحبط مسعاه، وفشلت جميع جهوده، قام نابليون في ليلة العشرين من مايو برفع الحصار، وإخلاء المعسكر بهدوء، من أجل العودة إلى مصر. وفي الرابع عشر من يونيو وصل مرة أخرى إلى القاهرة، حيث حدثت عدة اضطرابات أثناء غيابه، وكذلك في الإسكندرية؛ لكن تم قمعها من قِبل قادة المدينتين. لم يمض وقت طويل قبل أن يتم إخبار بونابرت من قِبل الجنرال ديزيه بأن المماليك من مختلف الفئات كانوا يستعدون لتغطية إنزال ما، إما في برج العرب، أو في أبي قير. وفي الرابع عشر من يوليو، غادر جنرال لاجرانج Lagrange القاهرة برتل صغير، وفاجأ أحد معسكرات المماليك في سبابيار، وقادهم إلى الصحراء، وأخذ كل أمتعتهم مع سبعمائة جمل. قام الجنرال مورا مع رتل آخر بتفريق العرب لدى بحيرات النطرون. وفي اليوم نفسه انطلق بونابرت من القاهرة بفرسان ومشاة من الحرس، وفرقتين من قاذفي القربينات والاستطلاع، وقطعتين من المدافع؛ حيث توقف في الجيزة، وأمر الجنرال مورا بالانضمام إليه. وبالقرب من الأهرامات، جاء الحرس المتقدم على مرأى من بعض العرب الذين ينتمون إلى مؤخرة جيش مراد بك، وقاموا بملاحقتهم وقتلوا بعض الرجال وأخذوا بعض الجمال.

لكن ما منع بونابرت من ملاحقة مراد هو وصول رسالة من الإسكندرية تخبره بأن أسطولًا تركيًّا مكونًا من مائة سفينة ألقى مراسيه في أبي قير في العاشر من الشهر، وبدا أن لديه نية عدائية ضد ذلك المكان. وعلى الفور عاد إلى الجيزة؛ وبعد اتخاذ الترتيبات اللازمة، وإصدار

(١) من الملاحظ بشكل عام أن المؤلف يضخم من الدور الإنجليزي وينسب إليه البطولات (المترجم).

أوامره، انطلق إلى ساحل البحر. وفي التاسع عشر من الشهر وصل إلى الرحمانية، حيث انضم إليه مختلف أقسام الجيش في اليومين التاليين. وهناك عَلِمَ أن الأسطول التركي قد هبط منه حوالي ثلاثة آلاف رجل مع بعض المدفعية. وفي الخامس عشر هاجموا معقل أبي قير، وحملوا عليه؛ فاستسلم الحصن في نفس اليوم بعد مقتل قائده. وعلى هذا قام الأتراك بإنزال ما تبقى من مدفعيتهم، وبدأوا في تحصين أنفسهم في شبه جزيرة أبي قير، وتزويد الحصن بالمؤن والذخيرة، والاتحاد مع العرب في انتظار وصول مراد بك بقواته. غير أن بونابرت حال دون ذلك؛ إذ كان قد واصل زحفه من الرحمانية واتخذ موقعًا يقطع اتصالاتهم بالبلد. وفي الخامس والعشرين زحف لمهاجمتهم، حيث تأرجح الفوز طويلاً بسبب الثبات الكبير من كلا الفريقين. وبعد شجاعة أسطورية، هُزم كامل الجيش العثماني، وكان مصيره بين قتيل وغريق. كانت مذبحة مروعة، ولا تزال السهول بيضاء على امتداد كبير من عظام أولئك الذين سقطوا. وقد وقع مصطفى باشا - القائد العام للأتراك - في الأسر، مع حوالي مائتين من رجاله فقط، وتُرك حوالي ألفي قتيل في ميدان المعركة؛ وسقطت جميع خيامهم وأمتعتهم وعشرين مدفعًا في أيدي الفرنسيين. وفي اليوم التالي تم دعوة القلعة للاستسلام، وهو ما قوبل بالرفض، فتم قصفها؛ وسرعان ما تحولت إلى كومة من الحجارة بعد تعرضها للضرب من قبل مدفعية المحاصِرين، ومع ذلك استمر الحصار حتى الرابع من أغسطس، عندما هرعت الحامية - التي لم يعد لها أي تواصل مع الأسطول، تعاني من الجوع والعطش - لتسقط عند أقدام الغزاة طالبة الرحمة.

خلال هذه الفترة أُبلغ بونابرت عن طريق بعض ألوية الهدنة الإنجليزية، بالهزيمة التي مرت بها جيوش الجمهورية في إيطاليا وعلى ضفاف نهر الراين، والصراعات التي كانت تحدث في فرنسا. وبناءً على ذلك، ولما كانت هذه الهزيمة الأخيرة للحملة التركية تعزز تأمين احتلاله، فقد عزم

على الذهاب إلى مجال عمل أكثر أهمية. وبعد أن أمر الأدميرال جواتوم Gantheaume بالاستعداد للإبحار بفرقاطتين، وقارب إشعار، وتارتان tartan، دون أي إعلام لخططه؛ وتم تسليم رسائل مختومة إلى الجنرالات لان Lannes، ومارمو Marmont، ومورا، وأندريوسي Andreossi، وكذلك إلى مونج Monge وبيرتوليه Berthollet، كان عليهم الإطلاع عليها في وقت محدد في يوم الثاني والعشرين من أغسطس، عند نقطة معينة على شاطئ البحر. هذه الملاحظات أمرتهم بالإبحار فورًا، وهو ما فعلوه دون أدنى اتصال مع أي شخص. وبرتيه Berthier وحده هو الذي رافق بونابرت إلى أوروبا، بشكل سري. وعندما غادروا أبو قير اعترضتهم رياح معاكسة أدت إلى احتجازهم حتى يوم الرابع والعشرين. وقد تم تسليم مجموعة من الرسائل المختومة كذلك إلى الجنرال كليبر، ليتم فتحها بعد أربع وعشرين ساعة من رحيل السفن. تضمنت تعيينه في القيادة العامة، وتعيين الجنرال ديزيه على صعيد مصر.

حاول بونابرت قبل مغادرته فتح مفاوضات مع الوزير الأعظم، والتي توقع أن يتم من خلالها على الأقل تأخير اتخاذ العدو أية إجراءات دون سابق إنذار؛ وقد باشر كليبر لاحقًا هذا التفاوض. ولما أُنهك الفرنسيون فعليًّا بالمعارك المتكررة واليأس، رغم العدو غير الماهر، اضطروا للمسير في مثل هذا المناخ فضلاً عن احتياجهم لكل شيء، في حين أن انتصاراتهم كانت تقلل باستمرار أعدادهم، التي لم يكن لديهم أي أمل في تعزيزها بعد أن تم تدمير أسطولهم؛ إذ لم يتطلب الأمر قليل من الشجاعة بين القوات، ولا كفاءة مألوفة لدى القائد، من أجل الحفاظ على موطئ قدمهم داخل البلاد. كان مراد بك قد تقدم نزولاً مرة أخرى عبر النيل، فتم رده من قبل الجنرال موراند Morand الذي تجاوزه وباغته في معسكره، وهزمه في سمنود؛ عندما قام الجنرال ديزيه -كي يتخلص منه تمامًا إن أمكن- بمطاردته باثنين من الأرتال السريعة، تتألف من مشاة يمتطون الجمال

وفرسان ومدفعية؛ أحدهما تحت قيادته، والآخر تحت قيادة معاون الجنرال بويرBoyer. وفي التاسع عشر من أكتوبر وصل إليه بوير في صحراء سيدمنت. بدأ المماليك الهجوم بضراوة شديدة لكنهم هُزموا كالمعتاد؛ وطاردهم الفرنسيون على جمالهم، إلا أن الصحراء ضمنت انسحابهم مرة أخرى.

في ذات الوقت الذي كانت تستعد فيه حملة بحرية ثانية لمهاجمة مصر. ظهرت مجموعة من القوات الآتية من القسطنطينية تحت قيادة سيد علي بك، على متن أسطول تحت قيادة السير سيدني سميث، عند مصب فرع دمياط، بينما كان جيش الوزير الأعظم يقترب عبر طريق الصحراء. كان هناك على الجانب الشرقي من مدخل النيل قلعة متهدمة، معزولة بفيضان النهر مع وجود إمكانية للعبور إليها؛ فما كان من القوارب العثمانية إلا أن استولت عليها ورفعت الراية العثمانية، وهو ما كان بمثابة الإشارة لسفن المدفعية العثمانية أن تتقدم، وللفرنسيين أن يفتحوا النيران. تم وضع مدفع صغير الحجم Carronade على خرق بالقلعة، والقطع الميدانية في القوارب استمرت في إزعاج الفرنسيين وأعاقت عملهم في القذف لمنع الإنزال الذي لم يتم حتى الأول من نوفمبر، على الرغم من استمرار تبادل إطلاق النار مع هدنة وجيزة في الأيام الثلاثة السابقة. وحالما هبطت الفرقة الأولى من الأتراك، تقدم الفرنسيون للهجوم عليهم بالحراب؛ لكن الأتراك، بدلاً من انتظار الهجوم، اندفعوا، وسرعان ما هُزم الخط الأول بالكامل. لكن مع تعقب الفارين بالكثير من الحماس، استقبلهم الاحتياطي الفرنسي بتنظيم مثالي، في نفس وقت الهجوم عليهم بواسطة الفرسان. وهكذا تلقوا الهزيمة بدورهم، وهرعوا إلى البحر، وتم قتل الكثير ممن لم يستطيعوا الإقلاع بالزوارق أو أسرهم. وظلت السفن على الساحل بضعة أيام أخر، حيث اضطروا إلى تركها بسبب الطقس.

مع ذلك فإن الهجوم الوشيك قد ازداد سطوًا على قوات كليبر المتقلصة. وكانت مفرزة من جيش الوزير الأعظم، الذي كان يُعسكر في غزة، قد حاصرت العريش واستولت عليها. وفي معسكر الوزير الأعظم قبالة هذا المكان، تم توقيع اتفاقية في الرابع والعشرين من يناير عام ١٨٠٠م، وافق كليبر بمقتضاها الجلاء عن مصر. وقد وافق السير سيدني سميث على الانضمام لهذه الاتفاقية، التي من المفترض أن موادها قد صيغت فعليًّا تحت إشرافه؛ ومن المؤكد أنها احتُرمت من جميع الأطراف؛ فالفرنسيين، الذين لم يخضعوا حتى ذلك الوقت، سُمح لهم بالرحيل بأسلحتهم وأمتعتهم؛ وفيما يتعلق بمصالح بريطانيا العظمى، فقد صارت آمنة من أي خطر، بعد أن كان امتلاك الفرنسيين لمصر يمكن أن يهددها؛ إذ أن ضمان الأمن لا يمكن شراؤه سوى بإراقة الكثير من الدماء.

لسوء الحظ، وجد اللورد كيث، الذي يعمل بالقيادة بالبحر المتوسط، أن ذلك يتعارض مع الأوامر، وأنه على الفرنسيين أن يتكبدوا ثمن المغادرة، ما لم يسقطوا أسرى. وغضبًا من هذا الخرق غير المتوقع للاتفاقية، أخبر كليبر الوزير الأعظم -الذي تسلم العديد من الأماكن بالفعل، ويعسكر الآن في المطرية -عزمه على استئناف القتال. وفي العشرين من مارس فجرًا، بدأ في قذف المواقع المتقدمة للجيش العثماني، حتى صار الاشتباك شاملاً. وانتهى الأمر بهزيمة كاملة للأتراك، الذين فقدوا ما يقرب من ثمانية آلاف بين قتيل وجريح، وتسعة عشر قطعة مدفعية، وجزءً من تجهيز معسكرهم.

وبينما كان الفرنسيون يسعون خلف الوزير الأعظم، دخل نصوف باشا ومراد بك إلى القاهرة، حيث ذبحوا كل من وجدوه من الفرنسيين، بالإضافة إلى أعداد من اليونانيين والأقباط. وبمجرد أن عاد كليبر قام بحصار المدينة التي دافعت بعناد لبعض الوقت، لكنه ما لبث في النهاية أن

استعاد السيطرة عليها، وعاقب تلك الوحشية التي مورست على الفرنسيين وأنصارهم بطريقة فيها من العبرة.

هكذا حدث تغيير شامل في الأمور؛ فبدلاً من أن يتنازل الفرنسيون عن مصر، بدا أنهم أكدوا على حيازتهم للبلاد. وفي الواقع، اغتيل كليبر في القاهرة في الرابع عشر من يونيو على يد متعصب، بتحريض من آغا الإنكشارية وصِلة مع بعض الشيوخ. لكن لم يكن لهذه الحادثة عواقب كبيرة؛ إذ لم يتعرض خَلَفَه مينو لتحرشات من الخارج ولا ثورة أو اضطراب في الداخل لعدة أشهر.

مع ذلك كان هذا الهدوء مقدمة لإخراجهم النهائي. ففي الثاني من مارس عام ١٨٠١م، وصل الأسطول تحت قيادة اللورد كيث، وعلى متنه الجنرال أبركرومبي Abercrombie بجيش من ستة عشر ألف رجل، إلى خليج أبي قير؛ لكن هبت رياح شديدة منعت أي محاولة للإنزال. وفي يوم السابع تراجعت العاصفة، وفي الساعة الثانية من صباح يوم الثامن تم ملئ ما يقرب من مائة وخمسين قاربًا بنحو ستة آلاف رجل. وبحلول نهاية اليوم، كانوا قد وصلوا جميعًا إلى مكان الالتقاء، وقاموا بكل الاستعدادات والترتيبات اللازمة، وعند الثامنة تحركوا باتجاه البر. كان قد انتشر أربعة آلاف فرنسي على التلال الرملية التي ترتفع بالتدريج من الشاطئ، على يسارهم قلعة أبي قير، ومركزهم مدعوم بتلة أعلى بكثير من البقية. وبمجرد أن صارت القوارب على مسافة معينة، فُتِحَت عليها نار قوية بين قذائف وطلقات من خمسة عشر قطعة مدفعية وضعها الفرنسيون بين التلال، إلى جانب ألفين وخمسمائة بندقية. في ظل هذا تقدم الإنجليز ونَفَّذوا إنزالاً، ثم شكلوا خطًا زحف إلى أعلى التل في الوسط، وعلى رأسهم الجنرال مور Moore. لم يستطع الفرنسيون الصمود في وجه هجومهم، فتراجعوا أمامهم من القمة إلى أسفل التل. في الوقت نفسه، هرعت ميمنة الجيش الفرنسي إلى الشاطئ، وحتى داخل البحر، لقتل

بعض الرجال في القوارب، في محاولة عابثة لاعتراض عملية إنزال القوات؛ فقد صمد الجنود في قفزهم إلى الشاطئ، وصدوا هجوم مجموعة الفرسان، وأجبروا الفرنسيين على التنازل عن الأرض؛ وحينذاك أدرك الفرنسيون هزيمة مركزهم، وأنهم قد تعرضوا بناء على ذلك إلى الهجوم على مؤخرتهم، فتراجعوا سريعًا.

بعد أن تراجع الفرنسيون نحو الإسكندرية، وخسروا نحو ثلاثمائة رجل وثمانية قطع مدفعية، حل الإنجليز محلهم على الأرض، فكان الجيش كله على الشاطئ قبل حلول الليل. وفي الثاني عشر، تحرك الجيش البريطاني إلى الأمام، وأصبح على مرأى من الفرنسيين، الذين تمركزوا على مرتفع ملائم يمتد من البحر إلى قناة الإسكندرية. وفي صباح اليوم التالي، تم إصدار الأوامر بالهجوم، فزحف الجيش في خطين لتطويق الجانب الفرنسي، الذي نزل سريعًا من المرتفعات للهجوم على الفرق الأمامية التي يقودها الجنرالين الكبيرين كرادوك Cradock وإيرل كافان Earl of Cavan. لكن سرعان ما تم صدهم وإجبارهم على التراجع إلى تلة قريبة من أسوار الإسكندرية. في هذا الموقع، كان الجنرال الكبير مور مع الاحتياطي والجنرال الكبير هتشينسون Hutchinson يستعدان لمهاجمتهم من الجانب الأيمن، بينما هاجمت بقية القوات من اليسار؛ ولكن وُجد في الاستطلاع أن القيادة من خلال تلة محصنة داخل الأسوار لا يمكن أن تكون قابلة للاستمرار، وبناء على ذلك تُركت في حيازة الفرنسيين؛ وعسكر الجيش البريطاني على مسافة قليلة بين بحيرة مريوط والبحر.

في العشرين من الشهر وصل مينو إلى الإسكندرية مع الجزء الرئيسي من جيشه؛ وفي صباح اليوم التالي، قبل نحو ساعة من الفجر، بدأ هجومًا كاذبًا على يسار المعسكر البريطاني وعلى رأسه الجنرال كرادوك، الذي

قام بصد الفرسيين في الوقت ذاته، كان مينو يباشر مجهوده الكبير ضد الجانب الأيمن، حيث تطوع فيلق بونابرت الذي لا يُقهر، والذي يتألف من تسعمائة رجل، للقيام بالتطويق. وقد نجح إلى حد المرور بين البطارية التي تدافع عن هذا الجانب، وبين أطلال كبيرة كانت بالقرب منه. قاموا ثلاث مرات بالهجوم على البطارية، وفي كل مرة يدخل إليها أحد ترديه قتيلاً وجد الاحتياطيُّ -الذي يتكون من الفوجين الثاني والأربعين والثامن والعشرين - العدوَّ لدى مؤخرتهم، فقاموا بمواجهته، وهاجموا الفرنسيين بالحراب أثناء التفافهم، ودفعوهم إلى الوراء خطوة بخطوة داخل الأطلال. طلب الرحمة مئتان وخمسون، فتم أخذهم أسرى؛ ولم يكن هناك بقية. وقُدِّرَ لرايتهم، التي نَقشوا عليها العديد من الانتصارات التي حققوها، أن تُزَيِّن ظَفَر المنتصرين، ولم تَعُد لهؤلاء الذين أحرزوها بغاية الصعوبة في سهول أوروبا. وبينما كان هذا يحدث، فإن القسم الرئيسي للجيش الفرنسي قام في صف كبير باختراق الخطوط البريطانية إلى الوادي، وضغط على طول الوادي ناحية مؤخرة المعسكر. ودارت مجموعة من الفرسان المصاحبين لهم إلى اليسار بمجرد أن مروا من خط المؤخرة، ووجهوا هجومهم إلى مؤخرة الاحتياطي. كان التحرك غير المتوقع من قِبلهم والغير مُعَد للهدف قد كَسَرَ هذا الهجوم تمامًا؛ إذ كان الجنود البريطانيون، قَبل إزالة خيامهم، قد حفروا تجاويفًا على عمق حوالي ثلاثة أقدام ينامون فيها، وفي الوقت نفسه كانوا يلقون الرمال حول حدودهم. هكذا هَجم الفرنسيون على أرض مليئة بالحُفر فما لبثوا أن سقطوا فيها، ما أدى إلى هزيمتهم مباشرة هزيمة تامة. وبينما كان الجنود الفرنسيون متشابكين مع البريطانيين، حضر السير رالف أبركرومبي بينهم، لكن تم إخراجه مِن قِبل بعض قواته. وفي هذه اللحظة ركب فارس فرنسي وسدد تجاهه ضربة، لكنه لم يكن قريبًا بما فيه الكفاية، فلم يقطع سوى معطفه وصدريته وقميصه، وخَدَشَ الجلد فقط بسن سيفه؛ فدار فرسه ليُحْضِره إلى الهجوم

مرة أخرى، فقام بمحاولة طعن ثانية؛ بيد أن السيف قد مر بين خاصرة الجنرال وذراعه اليمنى، التي ضمها على الفور؛ وفي هذه اللحظة أُردي الفارس قتيلاً بطلق ناري، وبقي السيف في حيازة الجنرال. استمر هذا الصراع بعد هذا لبعض الوقت بعناد كبير، لكن في النهاية انسحب الفرنسيون. فقد الإنجليز في هذه المعركة مائتين وخمسين قتيلاً، وألف ومائتي جريح. وكان من بين الجرحى سير رالف أبركرومبي الذي لم يترك الميدان حتى انتهاء المعركة، على الرغم من أنه في وقت مبكر جدًّا من الاشتباك تلقى جرحًا خطيرًا في فخذه، حتى أنه لم يبق على قيد الحياة سوى إلى يوم الثامن والعشرين. وأصيب كذلك كل من الجنرال الكبير مور وقائد اللواء أوكس Oakes، ولكن ليس بشكل خطير. وعلى الجانب الفرنسي، قُتل في الميدان الجنرال رويس Roize، الذي قاد الفرسان، وأصيب الجنرالان لانوس Lanusse وبوديت Bodet بجروح قاتلة. وفقدوا نحو ثلاثة آلاف شخص، بين قتيل وجريح وأسير. بالإضافة إلى راية الألوان، وقطعتين ميدانيتين.

وفي منتصف الشهر التالي، أرسل الجنرال هتشينسون - الذي تولى القيادة آنذاك -مفرزة من القوات البريطانية والتركية، تحت قيادة الكولونيل سبنسر Spencer، تجاه رشيد. وسرعان ما تم دفع الفرنسيين من المدينة، فلجأوا إلى الجانب الآخر من النيل، لكن القلعة صمدت من السادس عشر حتى التاسع عشر من الشهر، عندما استسلمت الحامية.

في يوم الثالث والعشرين، نقل الجنرال هتشينسون مقر قيادته إلى رشيد، حيث قام بفصل حوالي أربعة آلاف رجل، سار معهم وعدد مماثل من الأتراك إلى الرحمانية، حيث اشتبك مع الفرنسيين في التاسع من مايو، وأخرجهم في دفاعاتهم. وفي الليل تراجعوا نحو القاهرة، وتركوا حامية صغيرة في القلعة، استسلمت في اليوم التالي. ثم واصلت القوات المشتركة

سيرها إلى القاهرة، بعد أن قامت بتنسيق تحركاتها مع الوزير الأعظم، الذي كان يقيم آنذاك على بعد عشرة أميال شمال شرق تلك المدينة. وأثناء زحفهم استولوا على قافلة من خمسمائة وخمسين جملاً متجهة إلى الإسكندرية، يرافقها ستمائة رجل، أخذوهم سجناء. وانضم إليهم عثمان بك، خليفة مراد بك، بألف وخمسمائة مملوك.

في هذه الأثناء، قام الجنرال الفرنسي -الذي عَلِمَ باقتراب القوات البريطانية عن طريق أولئك الذين انسحبوا من الرحمانية - بالزحف لمهاجمة الوزير الأعظم، على أمل هزيمته وتفريق قواته، قبل أن يحدث الالتقاء. ولحسن حظ الجيش العثماني، أنه قد تم متابعة تحركهم من قِبَل المهارة العسكرية للكولونيل موراي وعدد من الضباط البريطانيين الآخرين، حتى تم كبح الفرنسيين تمامًا، وأُجبروا إلى التراجع، تاركين أعداءهم سادة ميدان المعركة.

بعد أن وصل الجنرال هتشينسون إلى الجيزة، حيث قام الفرنسيون بتحصين أنفسهم للدفاع عن جسر يربط ضفتي النيل، شرعوا في تطويقه، بينما تقدم الوزير الأعظم إلى الأمام، وتمركز في نطاق قذائف مدفع تُطلق من القاهرة. هكذا عَلِم الفرنسيون أن تطويقهم، ودفاعهم عن مكان بعيد محصن بشكل ضعيف، والسكان الكُثر الذين لم يكونوا ودودين معهم بأي حال من الأحوال، فضلاً عما خبروه مؤخرًا وكذلك في مناسبات سابقة، لا يجعل براعتهم العسكرية تمكنهم حتى من مقاومة العثمانيين عندما يكونون تحت إشراف الضباط البريطانيين؛ كل ذلك جعلهم يَعْرِضون بحصافة تسليم القاهرة، وإخلاء البلاد على نفس الشروط التي قبلها كليبر سابقًا. لاشك أن الفرنسيين قد صمدوا لبعض الوقت، ولا شك أنهم ألزموا القوات المشتركة بشراء السيطرة على القاهرة بثمن باهظ من الدماء. لكن إلى أي مدى يفيد هذا الحياة البشرية؟ وما هي الاستفادة من

مصائب يجب تكبدها خلال حصار ممتد؛ وبؤس يجب أن يلحق بالآلاف من خلال صحة مدمَّرة، وأطراف مشوهة؟ بالنسبة لجندي، لا تمثل له هذه الأمور سوى مسارًا مشتركًا؛ ربما يقع اللوم على الجنرال بيليارد —كرجل يستحق الثناء - بسبب اتفاقية استسلام لم تعد بعد ذات فائدة.

هكذا أسلم الفرنسيون العاصمة، وعاد الجنرال هتشينسون إلى الإسكندرية، حيث عسكر القسم الرئيسي من جيشه. وفي السابع عشر من أغسطس بدأ عملياته لإخضاع هذه المدينة، التي صرح مينو نفسه بالدفاع عنها للنهاية. أبحر الجنرال كووت Coote مع رجال أقوياء خلال الفيضان، وهبط غربي الإسكندرية دون مقاومة تذكر، وشرع في حصار قلعة مرابوط Marabout القوية، عند مدخل الميناء الغربي. وفي شرق المدينة، تم شن هجومين للاستيلاء على بعض المرتفعات أمام التحصينات الفرنسية. تلك التي من اليمين كانت تحت قيادة الجنرال كرادوك، ومن اليسار كانت بقيادة الجنرال مور. استولى جزء من الفوج الثلاثين، تحت قيادة كولونيل سبنسر، على تلة أمام ميمنة العدو؛ فأمر الجنرال مينو - الذي كان شخصيًّا في ذلك الجزء من المعسكر المحصن - حوالي ستمائة رجل بإخراجهم من هذا الموقع. كان هذا التقدم في صفوف وبالحراب الثابتة، ودون إطلاق للنيران؛ لكن الكولونيل سبنسر لم ينتظر هجومهم. وعندما كانوا تقريبًا قريبين من الهجوم، وتمتعوا بالروح والنشاط، تم دفع الفرنسيين مرة أخرى إلى تحصيناتهم في ارتباك عظيم، مع سقوط العديد من القتلى والجرحى والأسرى.

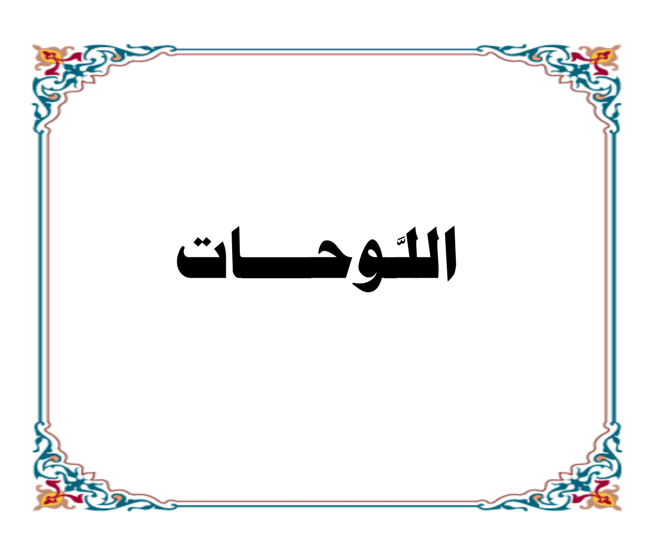
في ليلة الثامن عشر فتح الجنرال كوت نيران بطارياته ضد قلعة مرابوط التي تعرضت لهجوم مماثل من قبل بعض السفن التركية، وقوارب الأسطول، تحت إشراف الكابتن كوكرين Cochrane. وفي ليلة الحادي والعشرين استسلمت القلعة، وفي صباح اليوم التالي سارع الجنرال كوت

إلى مهاجمة فيلق قوي انتشر في جبهته، لتغطية الاقتراب من الإسكندرية. نجح سلوكه البارع الحصيف بشكل كامل؛ حيث دفع العدو أمامه في كل مكان على الرغم من تمركزه بقوة، في أرض بها عقبات غير مألوفة أمام تقدم القوات. عانى الفرنسيون كثيرًا في المعركة، وتراجعوا في ارتباك كبير، تاركين جرحاهم وراءهم فضلاً عن سبعة مدافع.

في يوم الرابع والعشرين فتحت البطاريات نيرانها على معقل دي بين De Bain؛ وفي ليلة الخامس والعشرين، فاجأ الجنرال كوت المواقع المتقدمة للعدو، عندما تم أسر سبعة ضباط وخمسين رجلاً. تم تنفيذ هذا العمل ببسالة بواسطة الكولونيل ملازم سميث lieut. Col. Smith؛ وسعى الفرنسيون، مع الكتيبة الأولى من الفوج العشرين، وفصيلة صغيرة من الفرسان تحت إمرة الملازم كيلي Kelly، إلى استعادة الأرض التي طُردوا منها، ولكن تم صدهم مع تكبدهم خسائر؛ وفي الصباح، تم فتح نيران أربع بطاريات على كل جانب من المدينة ضد معسكرهم المحصن، سكت على إثره سريعًا إطلاق نيرانهم، وحثهم على سحب العديد من مدافعهم.

في مساء يوم السابع والعشرين أرسل الجنرال مينو -الذي كان يتبجح بالقوة المنيعة لمواقعه، وعَزْمِه على الدفاع عنها -معاونًا للقائد البريطاني، لطلب الهدنة لمدة ثلاثة أيام، لمنحه الوقت اللازم من أجل الاستعداد للاستسلام. وبعد بعض الصعوبات والتأخير، تم توقيعه في الثاني من سبتمبر.

هكذا تم طرد الفرنسيين بالكامل من مصر، واضطروا للتخلي عن ثمار الغزو الذي مَنَّوا أنفسهم من خلاله بأعظم المنافع التي ستعود عليهم؛ حيث أُجبروا في حملة مدتها ستة أشهر على التخلي عن بلد احتفظوا بحيازته لمدة ثلاث سنوات، بدا خلالها أنهم لا يقهروا.



اللَّوحـــــات

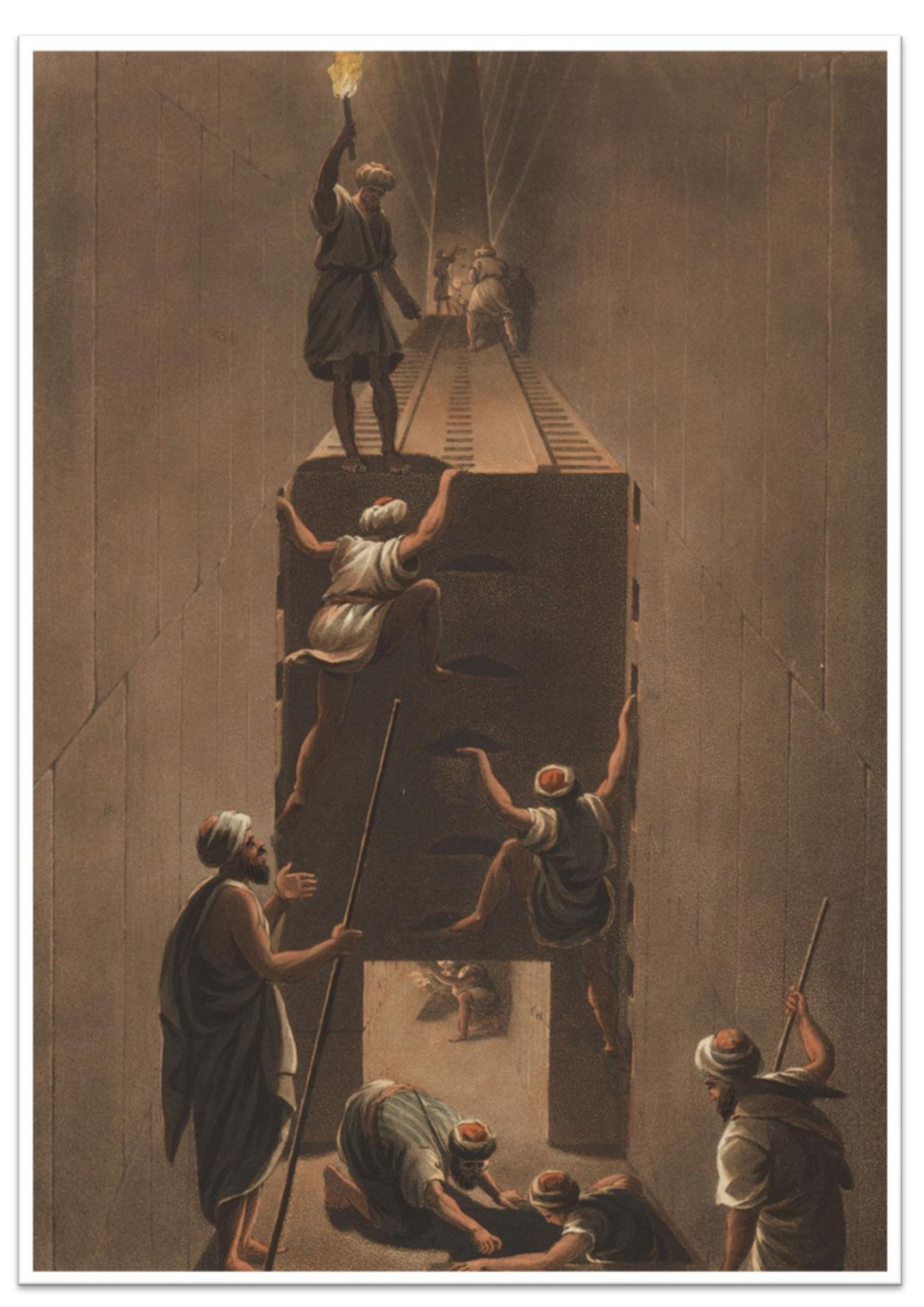


(١) مقياس النيل.

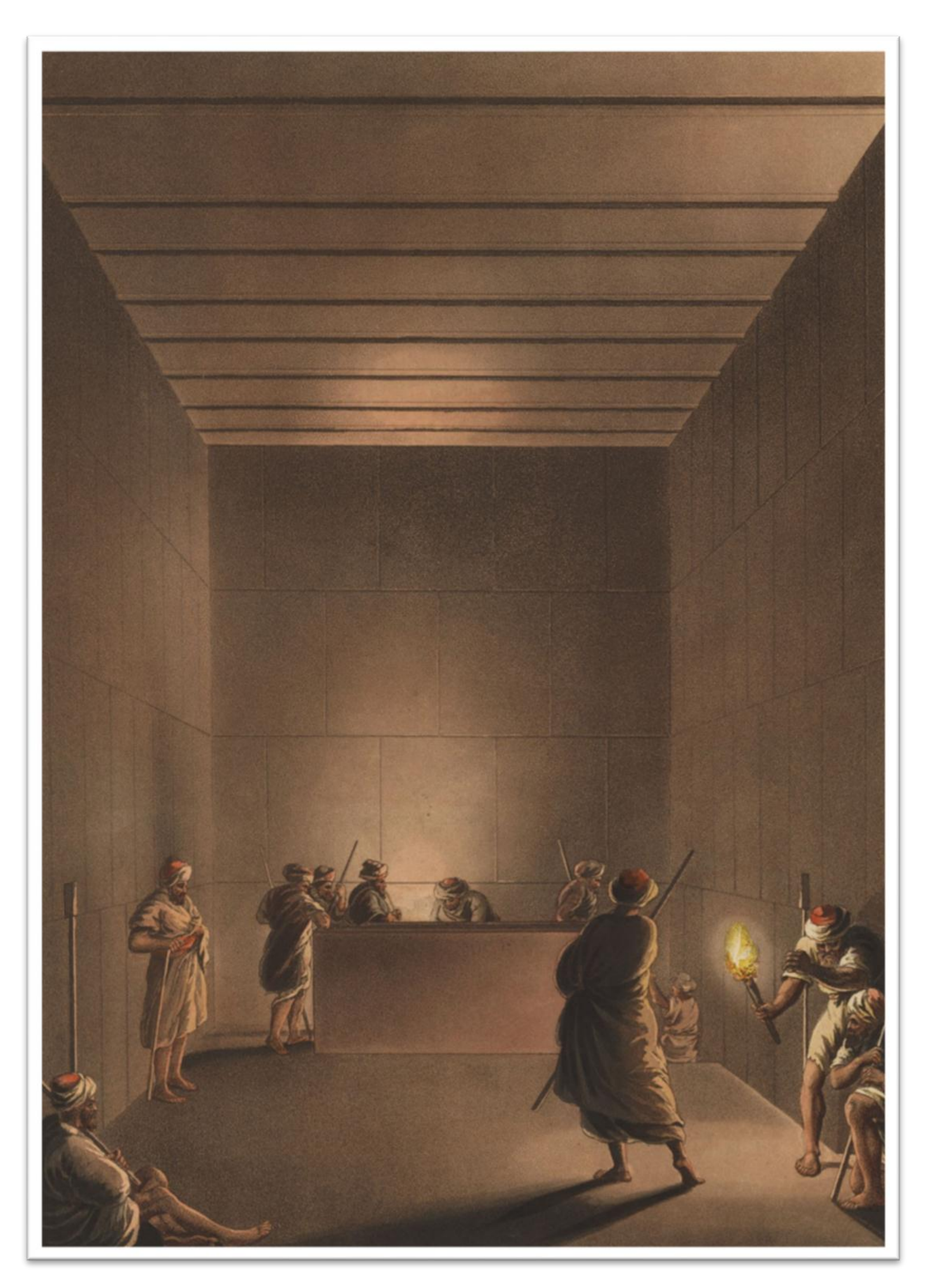


(٢) الهرمين الأكبر والأوسط بالجيزة، منف القديمة.

(٣) قمة الهرم الأكبر بالجيزة.



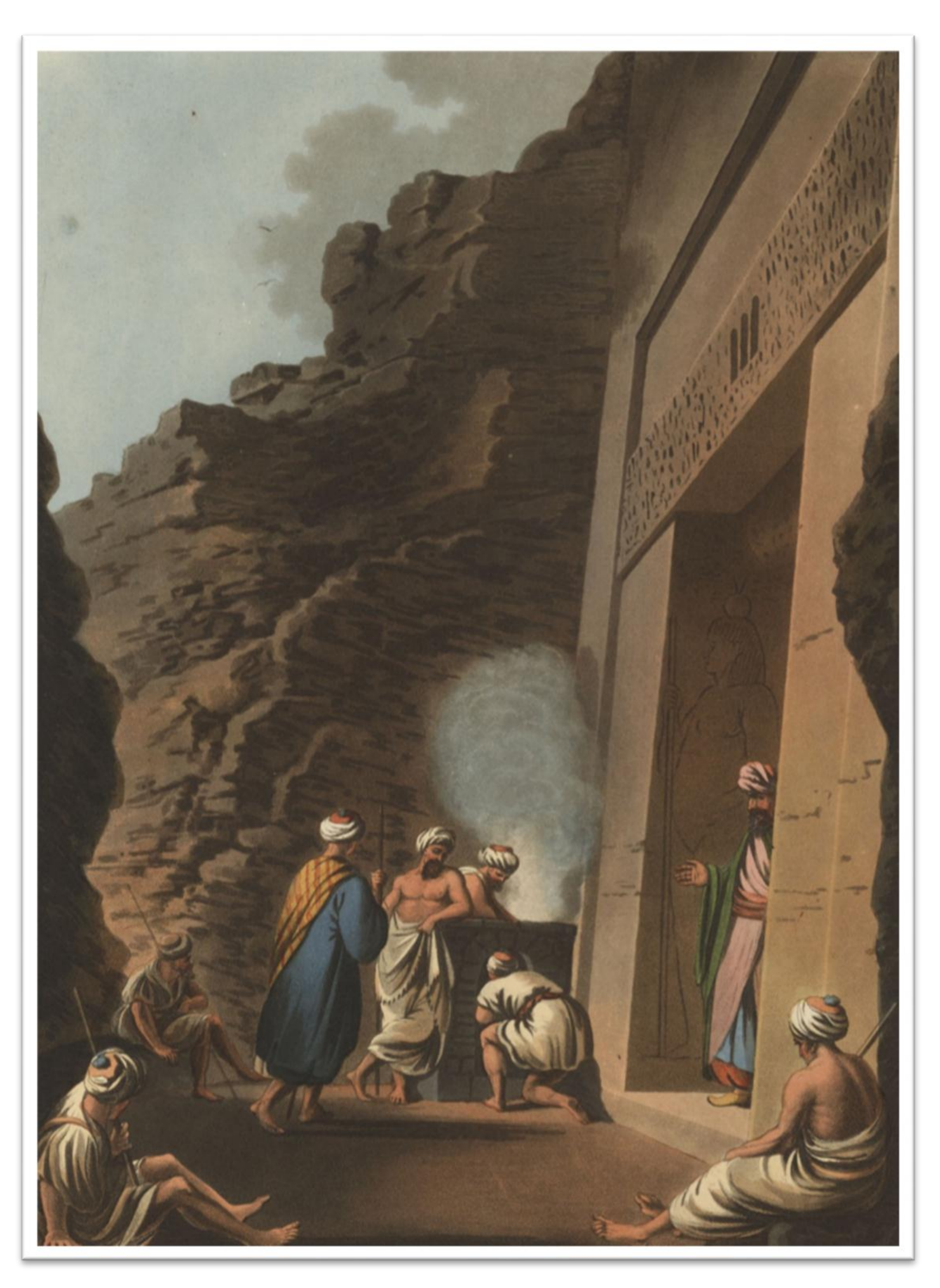
(٤) العبور من الدهليز الثاني إلى الثالث داخل الهرم الأكبر.



(٥) الغرفة والتابوت الحجري داخل هرم الجيزة الأكبر.



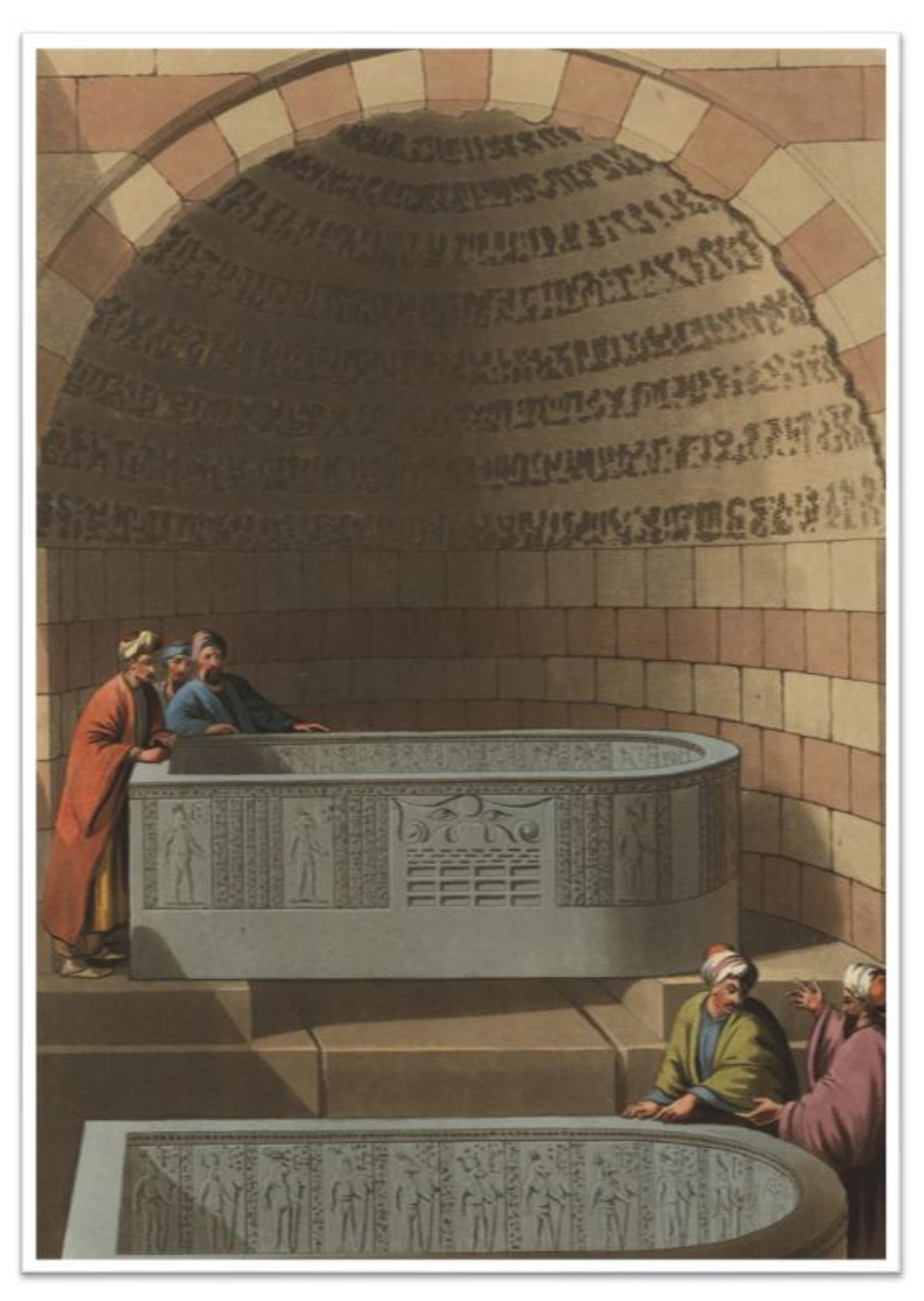
(٦) رأس أبو الهول.



(٧) مدخل إحدى غرف الدفن بالقرب من أبي الهول.



(٨) غرفة في جوف الأرض بالقرب من أهرامات الجيزة.



(٩) تابوت بازلتي قديم، يُسمى ينبوع العشاق



(١٠) مشهد داخلي من المقابر الموجودة في جوف الأرض. بالإسكندرية



(١١) مسلة الإسكندرية المسماة مسلة كليوباترا



(١٢) مسلة قديمة بالمطرية، هليوبوليس سابقًا

(١٣) عمـــود بومـــبي.

(١٤) حمامات كليوباترا بالإسكندرية.



(١٥) بقايا ساحة الألعاب الرياضية بالقرب من البوابة الكانوبية للإسكندرية



(١٦) الأعمدة الجرانيتية للرواق الكانوبي بالإسكندرية القديمة.

(١٧) بقايا مكتبة الإسكندرية. البطلمية.



(١٨) مسجد بالإسكندرية القديمة بالقرب من باب رشيد يتضمن جزءاً أثرياً



(١٩) منظر خارجي لأسوار الإسكندرية القديمة، ومسلة كليوباترا



(٢٠) حصن وميناء أبي قير، كانوب القديمة



(٢١) مدينة رشيد



(٢٢) ضريح أحد الأولياء العرب بالقرب من رشيد

(٢٣) مسجد أبو مندور



(٢٤) مدينة فوه على ضفاف النيل



(٢٥) أحد أبواب القاهرة الكبرى – عمارة عربية



(٢٦) الميدان الرئيسي بالقاهرة الكبرى، وبه قصر مراد بك

(٢٧) جامع الأربعمائة عمود بالقاهرة

(٢٨) ينبوع العشاق والمسجد المجاور له

(٢٩) آثار بقلعة القاهرة، بالقرب من قاعة يوسف

(٣٠) قاعة يُوسف، بقلعة القاهرة

(٣١) آثار مصرية بردهة أحد المنازل الريفية في بولاق



(٣٢) منزل صيفي عربي قائم على بقايا أثرية مطلاً على قناة منوف.

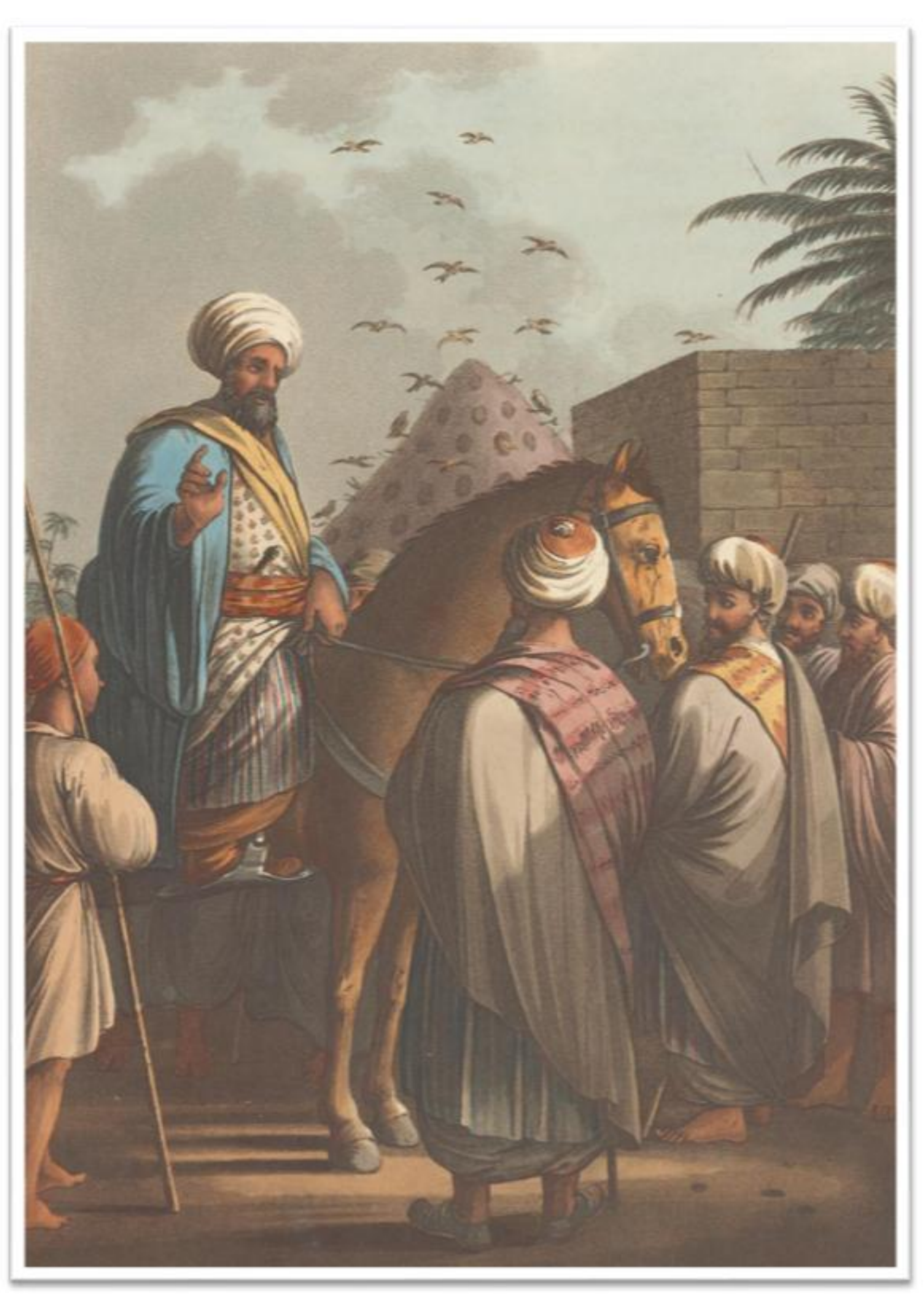
(٣٣) مدينـــة منـــوف



(٣٤) تمرين المماليك في ساحة قصر مراد بك.



(٣٥) مملوك في زيه التقليدي، أثناءِ تمرينه على صهوة الجواد.



(٣٦) شيخ عرب من قرية في مصر.

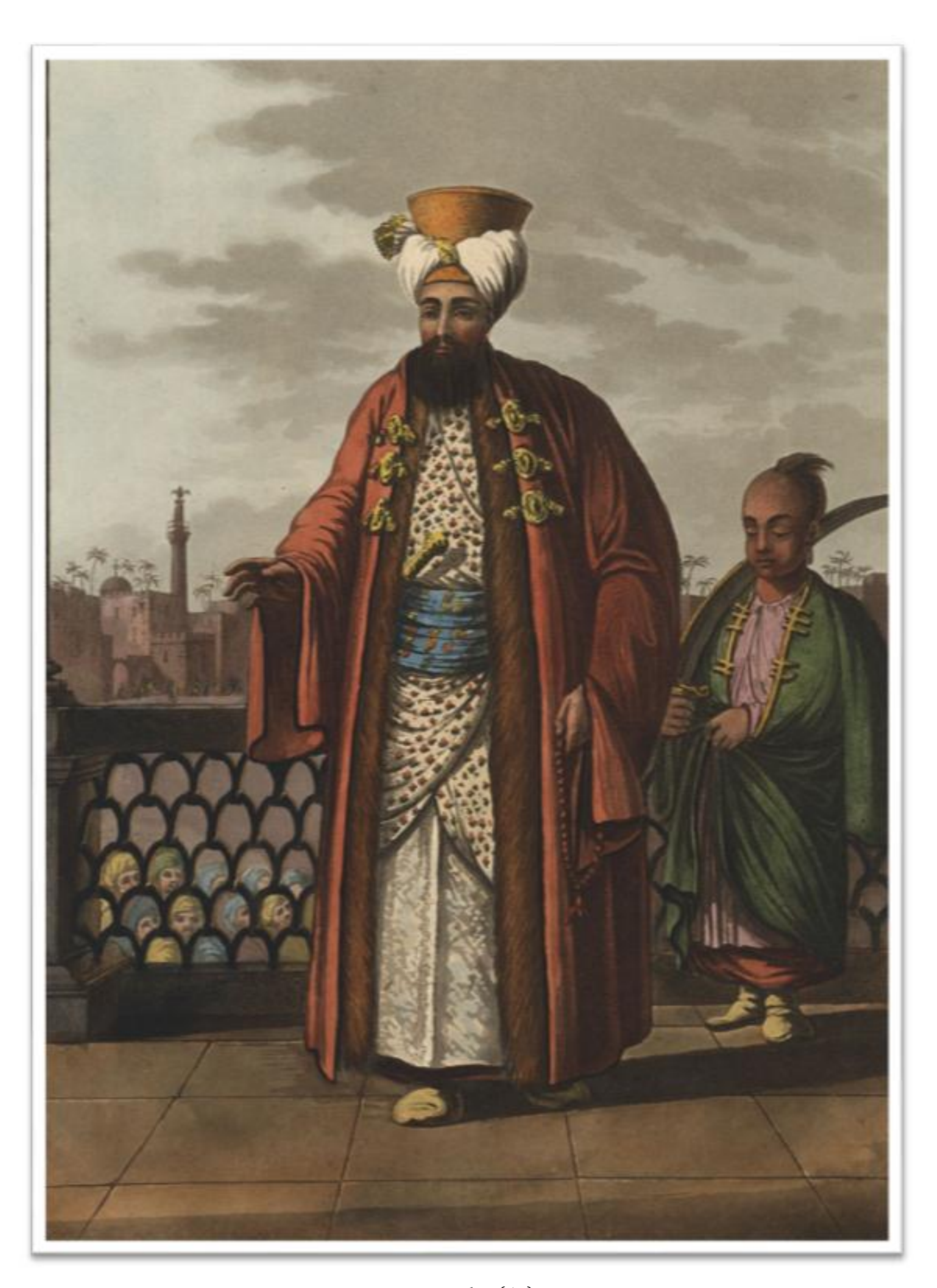
(٣٧) حفل مصري، في سنيت



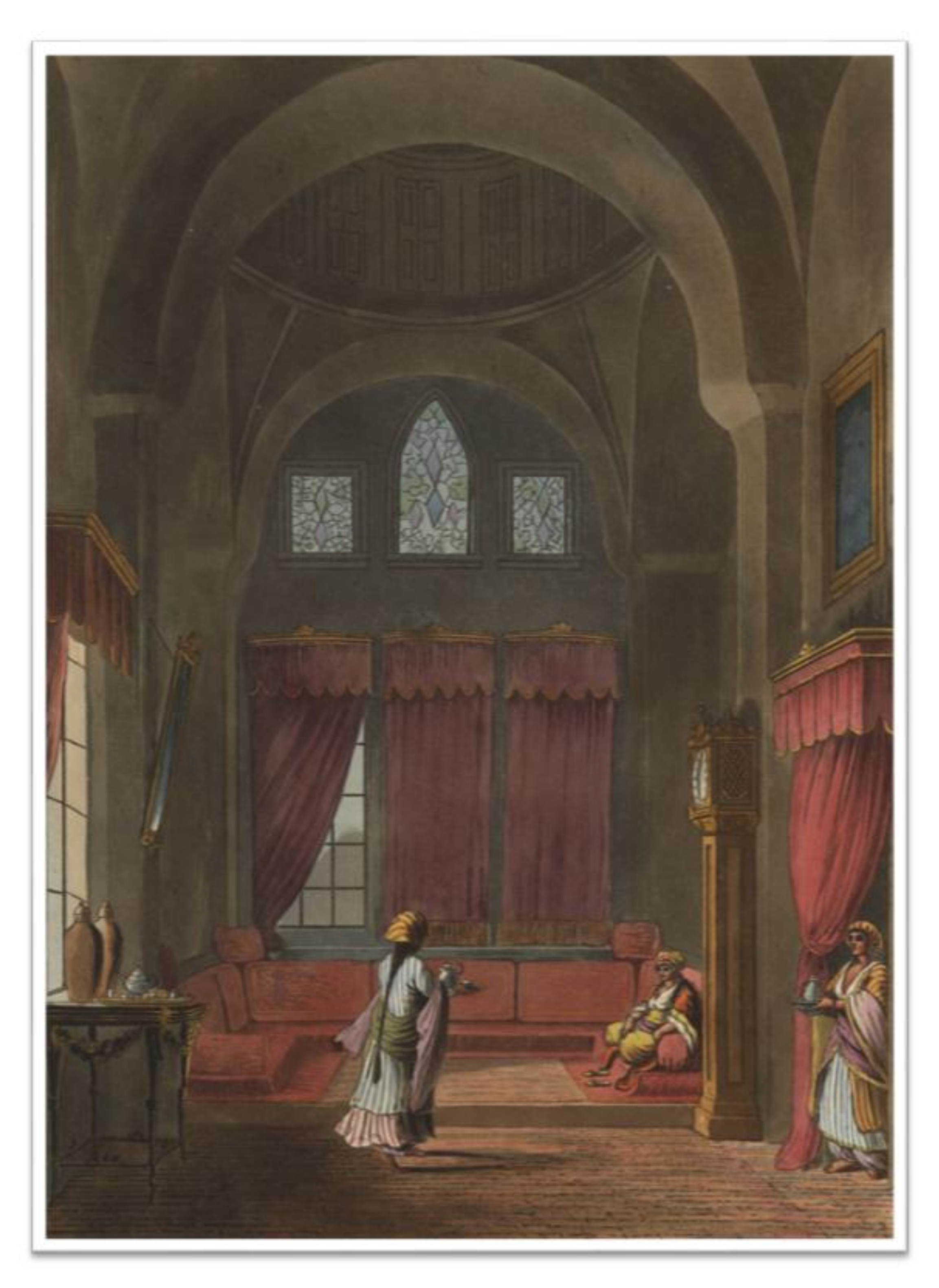
(٣٨) حفل مصري في كفر رضوان



(٣٩) معدّية بالقرب من سنيت



(٤٠) بك مصري



(٤١) سيدة من القاهرة



(٤٢) رجل وامرأة من البدو



(٤٣) راقصة مصرية



(٤٤) راعي ماشية مصري.

(٤٥) باب رشيد في الإسكندرية



(٤٦) جزء من مدينة الإسكندرية الحديثة والفنار

(٤٧) قنطرة على قناة الإسكندرية

وَصْفُ اللَّوحَات

١- مقياس النيل.

٢- الهرمين الأكبر والأوسط بالجيزة، منف القديمة.

٣- قمة الهرم الأكبر بالجيزة، مع مشهد بعيد لمدينة القاهرة.

٤- العبور من الدهليز الثاني إلى الثالث داخل الهرم الأكبر.

٥- الغرفة والتابوت الحجري داخل هرم الجيزة الأكبر.

٦- رأس أبي الهول.

٧- مدخل إحدى غرف الدفن، على مسافة نحو مائتي خطوة جنوبي أبي الهول.

٨- غرفة في جوف الأرض على مسافة أقل من ميل شرقي هرم الجيزة الأكبر، زُخرف جدارها بالنقش الغائر، وتتصل بغرف أخرى.

٩- تابوت بازلتي قديم، يسمى ينبوع العشاق، وُضع في حنية تحت درجات مسجد بالقاهرة.

١٠- مشهد داخلي من المقابر الموجودة في جوف الأرض بالإسكندرية، يظهر به غرفة دائرية والمدخل المفضي إليها.

١١- مسلة الإسكندرية المسماة مسلة كليوباترا.

١٢- مسلة قديمة بالمطرية، هليوبوليس سابقًا، على مسافة نحو ستة أميال من القاهرة، مع مشهد للقرية، ومخيم لإحدى القوافل في رحلتها عبر الصحراء.

١٣- عمود بومبي.

١٤- حمامات كليوباترا بالإسكندرية.

١٥- بقايا ساحة الألعاب الرياضية بالقرب من البوابة الكانوبية للإسكندرية.

١٦- الأعمدة الجرانيتية للرواق الكانوبي بالإسكندرية القديمة.

١٧- أطلال ما يُفترض أنها المكتبة البطلمية، على مسافة نحو ميلين من أسوار الإسكندرية القديمة، باتجاه أبي قير.

١٨- مسجد بالإسكندرية القديمة بالقرب من باب رشيد يتضمن جزءًا أثريًّا.

١٩- منظر خارجي لأسوار الإسكندرية القديمة، ومسلة كليوباترا.
٢٠- حصن وميناء أبي قير، كانوب القديمة، كما كان يبدو قبل الغزو الفرنسي للإسكندرية.
٢١- مدينة رشيد.
٢٢- ضريح أحد الأولياء العرب، بين الحدائق الواقعة غربي رشيد.
٢٣- مسجد أبو مندور، على ضفة النيل، على مسافة نحو ثلاثة أميال أعلى رشيد.
٢٤- مدينة فُوَّه، على الضفة الشرقية للنيل، على مسافة نحو خمسة عشر ميلاً أعلى رشيد.
٢٥- أحد أبواب القاهرة الكبرى، في الناحية الغربية من المدينة.
٢٦- الميدان الرئيسي بالقاهرة الكبرى، وبه قصر مراد بك.
٢٧- جامع الأربعمائة عمود، بين القاهرة القديمة و Kebaseh.
٢٨- ينبوع العشاق والمسجد المجاور له، في ميدان صغير بالقاهرة.
٢٩- آثار بقلعة القاهرة، بالقرب من قاعة يوسف، بها نُصب قديم مستخدم كعتب للمسجد.
٣٠- قاعة يوسف بقلعة القاهرة.
٣١- آثار مصرية بردهة المنزل الريفي الخاص بالسيد كارلو روزيني، أحد التجار الإيطاليين في بولاق؛ ومن بين هذه الآثار مومياء داخل تابوت حجري، على غطائه نقش صورة آدمية، موضوع تقريبًا على أحد جوانبه، كما هو الحال في وضع النوم.
٣٢- منزل عربي صيفي قائم على بقايا أثرية يطل على قناة منوف.
٣٣- مدينة منوف، على قناة بنفس الاسم، بين القاهرة ورشيد.
٣٤- تمرين المماليك في ساحة قصر مراد بك.
٣٥- مملوك في زيه التقليدي، أثناء تمرينه على صهوة جواده.
٣٦- شيخ عرب من قرية في مصر.

٣٧- حفل مصري راقص، في سنيت، وهي قرية على الضفة الغربية للنيل، بين القاهرة ورشيد.

٣٨- حفل مصري في كفر رضوان، وهي قرية على الضفة الشرقية للنيل، بين سنيت ومنوف.

٣٩- معدية بالقرب من سنيت.

٤٠- بك مصري في زيه التقليدي.

٤١- زي سيدة من القاهرة، وأَمَتِهَا الخادمة.

٤٢- راقصات مصريات في زيهن التقليدي.

٤٣- رجل وامرأة من البدو.

٤٤- راعي ماشية مصري، من بينها الماعز الخاصة بالبلد، ذات الشكل مميز.

٤٥- باب رشيد بالإسكندرية، حيث يتم أخذ الرسوم.

٤٦- جزء من مدينة الإسكندرية الحديثة مع الفنار.

٤٧- قنطرة على قناة الإسكندرية، على مسافة حوالي ثلاثة أميال جنوبي المدينة.

تم بحمد الله،،

فهرس الموضوعات